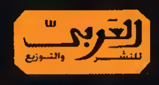
المؤلف صاحب الروايات الأكثر مبيعًا "امرأة في حقيبة" و"الروليت الروسي"

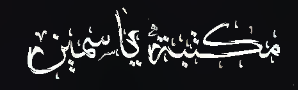
CRIME SERIES

قرية الخطايا السبع

رافاييل مونتيز

ترجمة: فاطمة محمد







#كتب_مختلفة #البرازيل

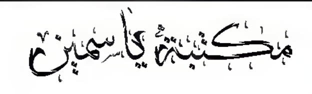
مجموعة مذكرات تصل للكاتب رافاييل مونتيز تحوي سبع قصص مختلفة تدور أحداثها في قرية منعزلة في عام 1589، حيث يتدهور حال جميع سكانها، وتتعرض القرية للدمار شيئًا فشيئًا، ويسودها البرد والجوع. يمكن قراءة القصص بأي ترتيب. بطل كل قصة شيطان من أمراء الجحيم السبعة، مسؤول عن إثارة خطيئة مميتة في البشر: "أسموديوس" (الشهوة)، "بعلزبول" (الشراهة)، "مامُّون" (الطمع)، "بيلفيجور" (الكسل)، "إبليس" (الغضب)، "لوياثان" (الحسد)، "لوسيفر" (الكِبر). في نهاية القراءة، تلتقي القصص في نتيجة واحدة ومدهشة.

رافاييل مونتيز

كاتب ومحام برازيلي. وُلد عام 1990 في ريو دي جانيرو. نُشرت له العديد من مجموعات القصص القصيرة وقصص الغموض والجريمة. وعندما كان في العشرين من عمره، أبهر النقاد وعامة القرَّاء برواية الجريمة "المنتحِرون" والتي نشرناها في عام 2021 تحت عنوان "الروليت الروسي". ترشح في عام 2010 لجائزة بينفيرا الأدبية، وحصل على جائزة "ماتشادو ب أسيس" التي تمنحها مكتبة البرازيل الوطنية عام 2012، وجائزة ساو باولو الأدبية عام 2013.

وهو في الرابعة والعشرين من عمره، نشر روايته الأكثر مبيعًا "أيام رائعة"، وتلقت على الفور شهرة واسعة واستقبالًا نقديًا مشجعًا، والتي ترجمتها العربي للنشر والتوزيع في عام 2019 تحت عنوان "امرأة في حقيبة". كما ترجمت له العربي للنشر والتوزيع رواية "امرأة في الظلام" عام 2022.

تصميم الغلاف : سيد كامل





60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: (+202)27921943 - (+202)27954529 فاكس: (+202)27947566
www.alarabipublishing.com.eg



قرية الخطايا السبع



قرية الخطايا السبع

تأليف: رافاييل مونتيز

ترجمة: فاطمة محمد

تحرير: إيزيس عاشور

مراجعة لغوية: كارم أحمد

طبعة 2023

الطبعة الأولى: ديسمبر 2022

رقم الإيداع: 2022/25737

الترقيم الدولي: 9789773198077

60 شارع قصر العيني - 11451 - القاهرة

ت:27921943 (202+) – 27954529 (202+) فاكس:27947566 (202+)

www.alarabipublishing.com.eg

تصميم الغلاف: سيد كامل

Original title: *O VILAREJO*

تابعونا لمعرفة أحدث إصداراتنا







@alarabipd

رافاييل مونتيز



قرية الخطايا السبع

رواية من البرازيل

ترجمتها عن البرتغالية: فاطمة محمد



تمت مراعاة المعايير البيئية أثناء إعداد هذا الكتاب

We took into consideration the environment while doing this book



بطاقة فهرسة

مونتيز، رافاييل، 1990 -

قرية الخطايا السبع/ تأليف رافاييل مونتيز؛ ترجمة فاطمة محمد.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2022.

ص؛ سم.

تدمك 9789773198077

1- القصص البرازيلية

أ- محمد، فاطمة (مترجم)

ب- العنوان 869,3

إلى والديَّ "باولو" و"أدريانا"..

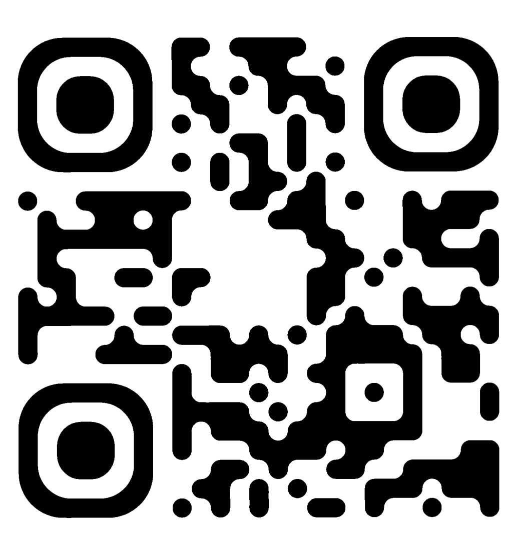
«إنَّ شخصية المرء هي شيطانه الحقيقي».

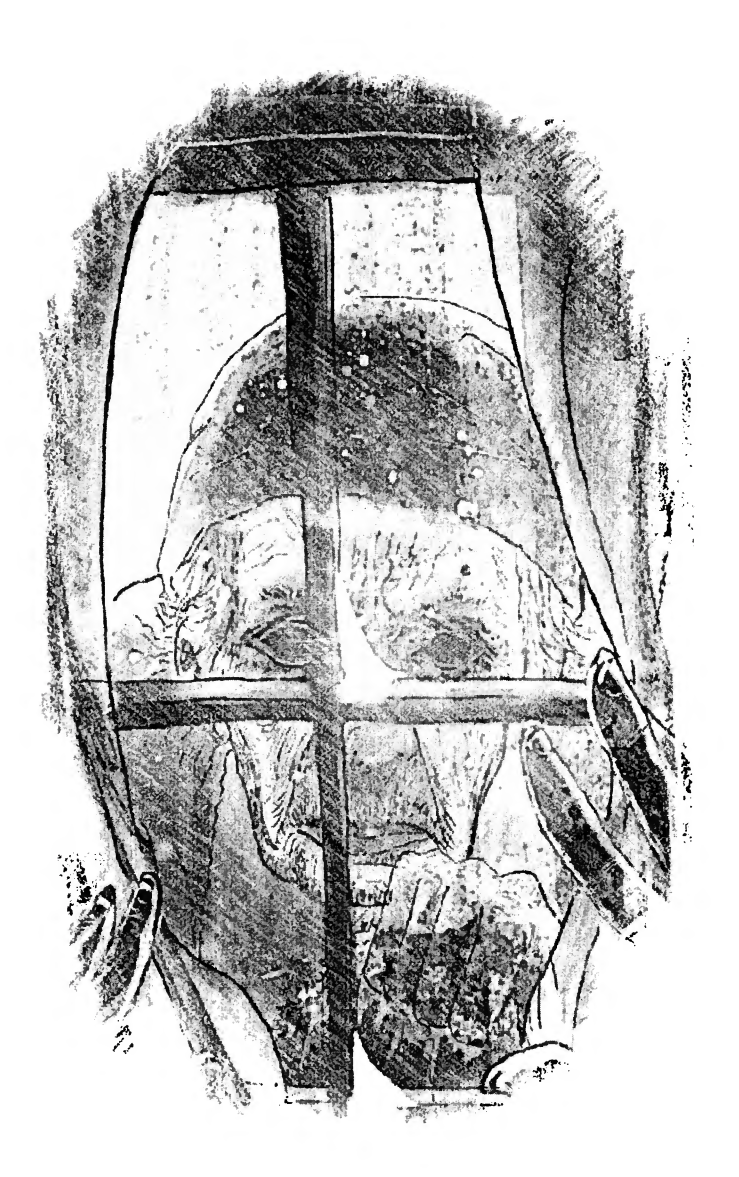
- هرقليطس

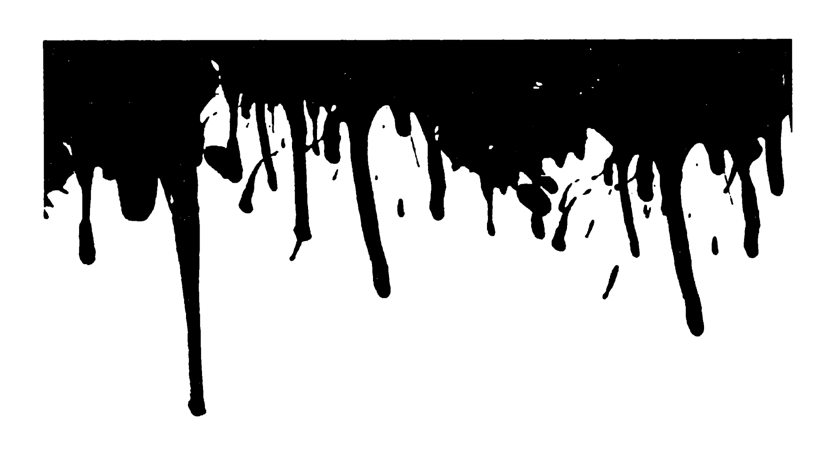
يسعدنا انضمامكم إلى قناة

مكتبة ياسمين

معكم نكبر ونستمر بكل جديد







مقدمة

وصلت إليَّ المذكرات المصورة لـ"إلفريدا بيمنستوفر" بطريقة غير مألوفة. في أوائل عام 2014، تلقيت مكالمة من "ماوريسيو جوڤيه"، وهو شريك في متجر لبيع الكتب النادرة اسمه "باراتوش دي ريبيرو"، في "كوباكابانا" بـ"ريو دي جانيرو"، إذ أوضح لي "ماوريسيو" أنه حصل على مجموعة من أكثر من سبعة آلاف كتابٍ من سيدة تُدعى "إلفريدا بيمنستوفر"، والتي تُوفِّيت قبل أشهر عن عمر مائة واثنين عامٍ. من بين أعمال كلاسيكية وموسوعات والكتيبات الصغيرة، وُجِدَتْ ثلاث مذكرات ذات جودة عالية بغِلاف من الجلد، وبها نصوص مكتوبة بخط اليد، بلغة أجنبية، وصور توضيحية. اتصل حينها بـ"آنا"، حفيدة "إلفريدا" التي باعته الكتب، لكنها لم ترد استرداد المذكرات؛ حتى إنها هددت بحرقها إذا أصرَّ "ماوريسيو" على ذلك. لم يعرف "ماوريسيو" ما عليه أن يفعله بهذه المذكرات، فاتصل بي ليسألني أكنت مهتمًّا برؤيتها، فقبلت.

كُتِبَتْ مخطوطات "إلفريدا بيمنستوفر" بحبر قديم باهت، وخط نسائي متردد، به أخطاء، ولكنه أصبح أكثر حزمًا على مدار الصفحات التالية. بدا الورق في حالة سيئة وكان النص مكتوبًا بلغة أجنبية، ظننتها في البداية الروسية أو البولندية. ثم أثار الاضطراب فضولي، فبين النصوص توجد رسوم صوَّرت مشاهد مرعبة بها عنف شديد، مرسومة ومُلوَّنة بألوان الشمع.

خلال تحليلي الصفحاتِ، أدركت أنها كانت قصة مقسَّمة إلى سبعة فصول. على الغلاف الداخلي للمذكرات الثلاث، وجدت اسم "بيتر بينسفيلد" مكتوبًا بخط اليد نفسه. بمساعدة الإنترنت، اكتشفت أن "بينسفيلد" كان كاهنًا وعالمًا لاهوتيًا وخبيرًا في علم الشياطين، كان يعيش في "ترير" بألمانيا في القرن السادس عشر.

ولعل إرث الأب "بينسفيلد" الأكثر شهرة هو "تصنيف الشياطين"، الذي كُتِبَ في عام 1589. وفقًا لأطروحته، كان كل شيطان من أمراء الجحيم السبعة مسؤولًا عن إثارة خطيئة مميتة في البشر: "أسموديوس" (الشهوة)، "بعلزبول" (الشراهة)، "مامُّون" (الطمع)، "بيلفيجور" (الكسل)، "إبليس" (الغضب)، "لوياثان" (الحسد)، "لوسيفر" (الكِبر).

وبعد تصفُّح القواميس والأطالس التاريخية والمواقع المختلفة، أدركت أنها ليست روسية ولا بولندية أو أوكرانية، فقد كُتِبَتْ المذكرات بلغة "الكيميريون"،

وهي لغة ميتة تنتمي إلى فرع اللغات "البوتنو أوغرية". فوجدتُ باحثًا واحدًا فقط في اللغة "الكيميرية"، وهو العالم الأستاذ "أوزي توزي"، رئيس قسم اللغات "البوتنو أوغرية" في جامعة "أوديني" في إيطاليا.

اتصلت بالأستاذ، واقترحتُ موعدًا للقاء، ووفِّقْنا مواعيدنا لنلتقي بعد خمسة شهور من ذلك الحين. عندما أعطيته المذكرات، انتاب الأستاذ "أوزي توزي" الرعب. ورفض دعوتي لترجمة النصوص على استِحياء، وأوصى، دون مزيد من التوضيح، بتجاهلها. وأمام إصراري، لم يتسنَّ للأستاذ "أوزي توزي" سوى تقديم قاموس من اللغة "الكيميرية" إلى الإيطالية، فضلًا عن بعض الإرشادات اللغوية في اللغة "الكيميرية".

فقررت ترجمة النصوص بنفسي. الصيغ النحوية للغة وتصريفات الأفعال غير المنتظمة جعلت العمل شاقًّا للغاية، والنثر "الكيميري" مليء بالتناقضات والحذف والتأثيرات اللغوية، مع وجود استخدامات ودلالات مبهمة. بعد أشهر من تفرغي التام، أدهشني الشر والرعب وبرودة أسلوب الرواية التي تصل الآن إلى القارئ: أول عمل نثري كامل مكتوب باللغة "الكيميرية".

بحكم أنني المترجم، كانت لديَّ حرية إعادة ترتيب القصص على النحو الذي بدا لي أكثر مثالية. على أي حال، من الجيد القول إن بالإمكان قراءتها في أي ترتيب، دون المساس بتأويلها، إذ إنها ترتبط فيما بينها على نحو

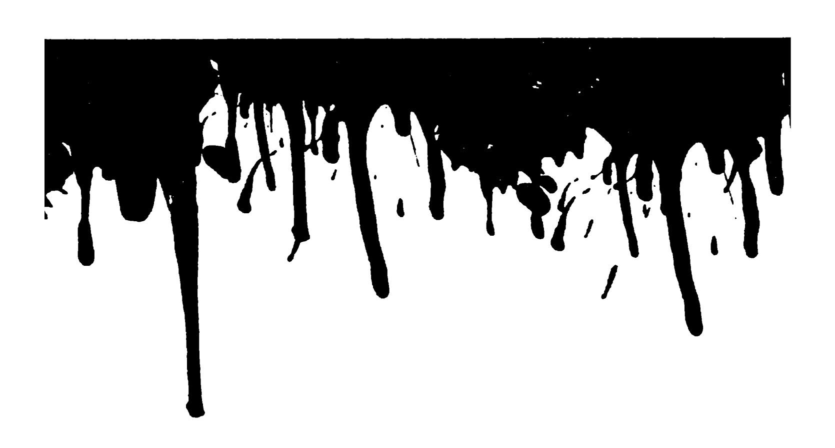
منفصل، إلا أنها تشترك في بعض الشخصيات والحقائق، وكلها تحدث في القرية ذاتها.

لقد بحثتُ أيضًا عن احتمالية وجود أصل للأسماء والموقع الجغرافي المحدد للأحداث المسرودة هنا. لم أجد شيئًا قط. إذا كانت القرية موجودة فعلًا، فقد اختفت من الخريطة. اختفى "الكيميريون" كما لو أن الأرض قد ابتلعتهم.

"رافاييل مونتيز"

المترجم





الشـراهـة

"بعلزبول"



وليمة لـ"أناطولي"

حاولت "فيليكا" والأطفال أن يأكلوا بسرعة قبل أن يشمَّ أي شخص بالجوار رائحة الطعام. بعد مرور مدة طويلة دون طعام، قد تتحفز حاسة الشم لدى الأسرة المجاورة وتدرك أنهم، عكس البقية، لا يزال لديهم شيء يأكلونه. فالبيوت في القرية متقاربة على نحو خطير.

إنها تعتقد أنها ذكية. لقد دفنت الطعام كله بين الثلوج والأرض، بطريقة جعلت الحراس لا يلاحظون شيئًا في أثناء الحصاد قبل عدة أسابيع. لقد اختارت بعناية مكان المخبأ، فهو يبعد مسافة تبلغ نصف متر مربع خلف حوض الصرف بالأرض، ثم إنها تحسن تقسيم الطعام المتبقي حتى لا يتضوَّروا جوعًا لحين عودة "أناطولي". بين الحين والآخر، تزيل الستارة عن النافذة، على أمل أن ترى زوجها يقترب من المنزل، ومعه أرنب أو اثنان في حقيبته لإطعام الأطفال الثلاثة الذين تركهم وراءه.

- سأخرج بحثًا عن الطعام. إذا بقينا هنا، فسوف نتضوَّر جوعًا أو نتجمَّد حتى الموت كالآخرين.

هذا ما قاله "أناطولي"، وهو يرتدي ملابسه لمواجهة الثلج. وأكمل:

- سأنطلق سيرًا على الأقدام عبر الغابة، وسأعود قريبًا.

مرَّت أيام كثيرة ولم يعد الزوج بعد. إنها لا تصدق أنه قد يهرب ويتخلى عن عائلته. ولا تصدِّق حتى إنه قد يموت، فـ"أناطولي" رجل قوي وشجاع.

سيظهر في أي لحظة. فقط يجب إبقاؤهم أحياء حتى ذلك الحين. يأكل الأطفال كل يومين، أما "فيليكا"، فقد اعتادت احتجاجات بطنها، فتأكل كل أربعة أيام. وفقًا لحساباتها، قد تدوم إمدادات المخبأ لخمسة أسابيع أخرى.

كان العجوز على حق؛ تتدمر القرية يومًا بعد يوم. كان الحدَّاد يجلس طوال الوقت إلى الطاولة. لا يحزن أحد على الموتى بعد الآن. لا يمكنهم أن يهدروا طاقتهم في نحيبهم لرحيل أولئك الذين لم يستطيعوا تحمُّل البرد والجوع. قبل أسبوعين، أخذت "إيرينا"، الجارة التي تقطن في اليمين، تبكي طوال الليل لوفاة طفلها، وفي اليوم التالي، ماتت هي الأخرى. لقد كانت حمقاء. أما "فيليكا"، فهي ليست حمقاء ولا تسمح لنفسها بأن تشعر بالأسف على أي شخص.

في السابق، كان الحي مختلفًا؛ اعتاد سكان القرية تناول العشاء معًا، وهم يضحكون، ويروون قصصًا بين رشفات الفودكا. لم يعودوا كذلك. إذا اكتشفوا أن "فيليكا" تخفي بقايا الجذور والبراعم، وكذلك بعض عظام الفئران لإعطاء المرق نكهة اللحم، فسوف يحرمون عائلتها من كل شيء. سيطالبون بتقسيمها بين الجميع، كما لو كانت مسؤولة عن حياتهم.

همست لأطفالها مرة أخرى:

- تناولوا الطعام، تناولوه بسرعة.

لا يريد الأطفال تناول الطعام. المرق سائل للغاية وضارب إلى الحمرة. تفضِّل "فيليكا" عدم المشاجرة. إذا تشاجرت معهم، فسوف يبكون ويفقدون طاقتهم. من الأفضل تركهم يأكلون عندما يرغبون في ذلك. تتجرع "فيليكا" المرق وتخفي الوعاء خلف المدفأة. إنها معتادة الصمت، وتُدهَش لسماع خطى تتحرك وسط الثلوج. بقوتها المتبقية، تركض إلى النافذة، وتزيح جزءًا صغيرًا من الستارة. تبحث عن انعكاس ظل شخص ما في البياض. لا شيء.. فتظن أنها أُصيبت بالهلاوس. تتابع الخطوات، ولثانية، شعرت أن "أناطولي" قد عاد وأخيرًا تُغمَر بالسعادة.

فهي تعرف، طبعًا، أنها لا بدَّ من أن تكون حذرة؛ فعمليات نهب منازل القرية أصبحت متكررة. ومن طاولة المطبخ، التقطت السكين التي

تستخدمها لتقطيع اللحم. اقتربت من الباب، بآذان صاغية، منتظرة أن يقترب منها أحد ما. قالت للأطفال دون أن ترفع صوتها:

- هيا اذهبوا إلى السرير. يجب أن ننام.

تشرق الشمس على استحياء في السماء، لكنها لا تستطيع السماح للأطفال باللعب في الخارج، فقد يراهم الجيران في حالة جيدة ويتساءلون عما تفعله "فيليكا" لإبقائهم أحياء مدة طويلة. إنهم مرهقون، لا يتجادلون مع أمهم؛ يجلسون إلى الطاولة وفي أيديهم الصغيرة أدوات المائدة القذرة.

طرقات على الباب جافة ومختصرة. تسدل "فيليكا" الستارة مرة أخرى. تتعرَّف الهيئةَ الباهتةَ للسيدة "هيلجا" مرتديةً ثوبًا ثقيلًا ذا ألوان داكنة، وشالًا سميكًا ملفوفًا حول رقبتها النحيلة، وتحمل في يدها اليمنى كيسًا ثقيلًا من القماش ويدها اليسرى مختبئة في جيب الرداء.

لم ترَ "فيليكا" السيدة "هيلجا" منذ أكثر من أحد عشر شهرًا. واعتقدت أن العجوز قد ماتت فعلًا. لم تستطِع تخيل أن امرأة عمياء ستنجو من هذا البرد الجليدي تلك المدة الطويلة. همست دون أن تنظر من ثقب الباب.

- ماذا هناك؟

قالت السيدة "هيلجا" بصوت أجش:

- أريد التحدث معكِ يا فتاة.

لم تجبها "فيليكا". من الأفضل الانتظار حتى ترحل العجوز.

تكرر:

- أريد أن أتحدث إليكِ. توجد أشياء غريبة تحدث.

جرَّد الجوع "فيليكا" من أي فضول تجاه حياة الآخرين. لم تتحدث إلى أي شخص في القرية منذ مدة، وتنوي البقاء على هذه الحال حتى عودة "أناطولي". تقول:

- لن أفتح الباب.

- الحراس لم يأتوا معي، فالحصاد توقف منذ أكثر من ثلاثة مواسم. لا داعي للخوف، يا فتاة.

همهمة السيدة "هيلجا" عذبة ومُغرية. إنه لمن اللطيف سماع صوت آخر. تقول "فيليكا":

- لا أصدقكِ أيتها العجوز. هيا ارحلي من هنا.

- إن الطرق كلها مسدودة بالثلج. من المستحيل دخول القرية أو الخروج منها دون أن يقتلكِ البرد. من فضلكِ، أنا في حاجة إلى مساعدتكِ. توجد أشياء غريبة تحدث.

هذه هي المرة الثانية التي تكرر فيها السيدة "هيلجا" قول ذلك. تُرى ماذا تقصد؟

وكأن "فيليكا" قد سألتها سؤالًا، تسترسل المرأة:

- مات "أستور". قتله شخص ما.

"أستور" هو الكلب الحارس للسيدة "هيلجا"، رفيقها الوحيد منذ أن استُشهِد العقيد "ديميتري" في الحرب. قبل سنوات، كان يعلن حلول الصباح بنباح فصيلته الهاسكي. ومؤخرًا، صمت "أستور"، وهذا ما لم يثِر دهشة "فيليكا". فهي اعتقدتْ أنه قد لقي حتفه مع سيدته.

- شخص ما قتل "أستور".

تكرر السيدة "هيلجا":

- تفكّري يا فتاة.

عبر النافذة، تنظر إلى "فيليكا" بعينين فارغتين، بهما سواد مرعب حيث يجب أن توجد مقل عينيها. تفتح كيسًا من القماش. تمد ذراعها، كاشفة عن جمجمة الكلب، وخيوط الفراء العالقة في بقع الدم المتخثّر في حين تلهو "ذبابة بجعة" على الهيكل العظمي للكلب. قالت ودمعة تسيل على وجهها العظمي:

- سلبوه كل لحمه. فقط تبقّى هذا.

يثير المشهد اشمئزاز "فيليكا". وتغلق الستارة قليلًا حتى لا يرى الأطفال ما يحدث.

تقول السيدة "هيلجا":

- أريد أن أعرف من قتل صغيري "أستور".

- لا أعرف أيتها العجوز. فأنا لم أفعل شيئًا.

- ولكن، يا فتاة، من يجرؤ على فعل ذلك؟

- قلت لكِ إنني لا أعرف. إنني حتى لا أتذكر متى كانت آخر مرة خرجت فيها من المنزل. حاولي أن تسألي "إيڤان" الحدَّاد. فهو يعرف كل شيء دائمًا.

- لقد طرقت بابه فعلًا. ولكن لم يجِب أحد. وطرقت أبواب بيوت أخرى أيضًا؛ بيت "جيكاترينا"، و"لاتاشا"، والأختين "ڤاليا" و"ڤوندا". ولكن لم يجِب أحد. حتى "كريجر"، الكسيح، الذي لا يخرج من المنزل مطلقًا. القرية خاوية يا "فيليكا". كلهم رحلوا.

- لن أفتح الباب.

- من فضلك يا فتاة. صرت أشعر بالوحدة. اسمحِي لي بالدخول.

تنظر "فيليكا" مرة أخرى إلى ذراع السيدة "هيلجا" وتنتابها قشعريرة. لا شك أن العجوز العمياء تخفي شيئًا.. ربما مسدس أو حتى سكين. لا يمكنها أن تكون بهذا الغباء وتعرِّض عائلتها للخطر بهذه السهولة.

- لن أفتح الباب.

- أحتاج إلى التحدث إلى أحد ما.

- لقد تحدثنا فعلًا. اذهبي الآن وحاولي البقاء حية.

تبتسم السيدة "هيلجا" ابتسامة حزينة، بلثة داكنة، بلا أسنان. تقول:

- سنموت جميعًا يا "فيليكا". عاجلًا أم آجلًا. سيقتلنا الجوع أو البرد. رحلت "بريجد" منذ أسبوع. رحلت نائمة، وعظامها متجمدة.

السيدة "بريجد" هي أخت السيدة "هيلجا" وتعيش في البيت المجاور. تعتقد "فيليكا" أنها يجب أن تعزيها، لكنها لا تريد بذل الكثير من الجهد.

- إذن، اذهبي قبل أن تموتي أيضًا أيتها العجوز. فعندما يعود "أناطولي"، سأذهب لزيارتكِ.

تغلق "فيليكا" الستارة. وتسمع السيدة "هيلجا" وهي تمشي مبتعدة ثم يعود الصمت الجنائزي فيجتاح القرية مرة أخرى. تلتفت إلى الأطفال، الذين ما زالوا جالسين، يبدو أنهم قد استمعوا إلى المحادثة بأكملها. من الواضح أن الطفل الأصغر "روريك" مذعور، وعيناه الخضراوان تهيمان في صحنه. ولكي تُهدِّئهم، قررت "فيليكا" أن تروي لهم قصة، عن رحلة محارب يقاتل الوحوش للدفاع عن أسرته. تحاول أن تتخيل التفاصيل الطريفة التي تحتويها المغامرة، لكنَّ صداعًا مزعجًا يمنعها من القيام برحلة إبداع طويلة.

بين كلماتها عن الجنيات والتنانين، تسمع "فيليكا" قرعًا آخر على الباب. لا يمكنها تصديق أن السيدة الوقحة "هيلجا" قد عادت. تمشي ببطء، تتردد، في حين تسحب الستار، بالكاد تتمالك نفسها: "أناطولي"! أخذت تقهقه، وكادت تجن من السعادة. فتحت الباب في عجالة وطبعت قبلة على وجنته. بادلها "أناطولي" الابتسام أيضًا. استعرض الحقيبة التي أحضرها معه ورأت "فيليكا" الأرانب والفئران التي اصطادها زوجها. لن يتضوروا جوعًا.

- أنتِ رائعة يا عزيزتي.

قالها لها الزوج وهو يقرص وجنتيها، ويُدهَش عندما يجد زوجته تتمتع بتلك الصحة الجيدة ومتوردة الوجنتين. تتباهى "فيليكا":

- لقد تصرفتُ على طريقتي الخاصة.

- حتى إنكِ تبدين... سمينة أكثر!

- لا تكن أحمق يا "أناطولي"!

- أين الأطفال؟

- جالسون إلى المائدة، يتناولون العشاء. علينا الاحتفال!

تتحمس وتضع قبلة أخرى على وجنة زوجها. ويمشيان بذراعين متشابكتين.

عندما شاهد الصالة، بدأ "أناطولي" يتعثر. ويشعر أنه مصاب بالدوار ويحتاج إلى الاتكاء على مقعد حتى لا يسقط على الأرض. تقيأ الطعام القليل الذي كان يحتفظ به في معدته ونظر إلى وجه زوجته، لكنها واصلت الابتسام.

تعرَّف "أناطولي" جثثَ العديد من سكان القرية المتناثرة في أرجاء الغرفة الصغيرة. على الأريكة، مقطوع الرأس، يوجد "كريجر"، الكسيح. بجانبه، "إيڤان"، الحدَّاد، لديه سكين ريفية مغروزة في صدره. وبالقرب من المدفأة، توجد أرجل ورؤوس "ڤاليا" و"لاتاشا"، عالقة في أسياخ طويلة، ينتظرون لحظة شوائهم.

يجري "أناطولي" في أرجاء المطبخ. جثث الأطفال الثلاثة ملقاة على الطاولة. سائل قرمزي يتدفق على الأطباق والكراسي. تظهر قطع من أذرع الأطفال وأرجلهم في الصحن الذي يتصاعد منه البخار على مفرش المائدة المزركش. وفي طبقٍ في المنتصف، تغوص قطع من الصغير "روريك" في مرق ضارب إلى الحمرة.

- ماذا فعلتِ؟

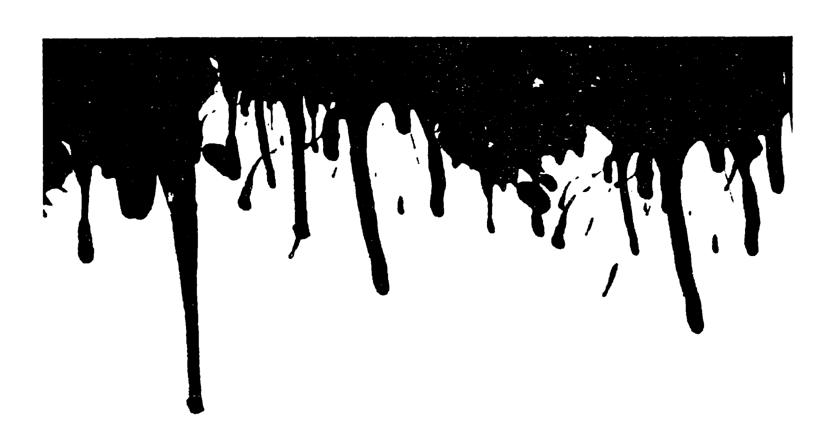
تداعب "فيليكا" رأس الشابة "مايشا"، المثبتة في شوكة ذات أربعة أسنان. تقول:

- هل رأيتم يا أطفال؟ لقد أحضر والدكم الطعام. لن نتضور جوعًا بعد اليوم.

قالت وهي تقضم إصبعًا صغيرة مشوية متبقية في طبقها:

- هيا الآن يا عزيزي، تعالَ وقبِّل أطفالك. إنه يوم مميز. سأعد وليمة للعشاء.





الحسـد

"لوياثان"



الأَخَوات "ڤاليا" و"ڤيلما" و"ڤوندا"

يلتهم التَوْأَم " ڤوندا " و"ڤيلما" بشراهة لحم الخنزير المشوي، لم تكونا جائعتين، بل كانتا في عجالة لإنهاء وجبتهما للعب في الفناء الذي يقع غرب محطة القطار. في أثناء مغادرتهما الطاولة، أمرتهما الأم بغسل أيديهما المتسخة في الحوض وارتداء معطف فرو آخر قبل خروجهما. ففي ذلك الحين، كانت البرودة في القرية تصل إلى 15 درجة تحت الصفر.

ساعدت الأخت الكبرى الأختين التوأم في اختيار المعاطف من خزانة الملابس، وعندما سمعت طرقًا على الباب، هُرِعَتْ إلى الحمام لكي تتعطر، ثم أسرعت بلا هوادة إلى المدخل لتحيي حبيبها، وهي تحمل كل أخت في يد.

"كريجر"، هو شابٌ ينتظره مستقبل واعد، وهو معروف أيضًا في القرية بمهارته في الحدادة وأنه مهذب ويحترم الآخَرين، ناهيك بوسامته بالتأكيد؛ فبالنسبة إلى "ڤاليا"، الجمال هو معيار أساسي لكي تعجب بالرجل. لا تنكر

أن الذكاء واللطف والعائلة الصالحة هي مقومات مهمة، ولكن صراحة، مَن الذي يقع في حب رجل لديه نمش في الوجه، أو أعور العين أو بدين على سبيل المثال؟ على أي حال، هو لا يخسر أي نقاط في جانب المظهر؛ فهو يحلق وجهه المعقوف كل صباح خلال أعوامه العشرين، ويرتدي ملابس تلائم جسده وتشع عيناه فرحة كلما قابل حبيبته.

"ڤاليا" بدورها تفلت يديْ أختيها لتعانق "كريجر". فتبتسم "ڤوندا" و"ڤيلما" وتنتظران في تأهب لينتهي ذلك الغزل حتى تذهبا إلى الفناء. صرخت الأم من نافذة المطبخ حيث كانت تنظف الأطباق الممتلئة بالدهون بعد الغداء:

- "چيكاترينا" في انتظاركن فعلًا. انتبهي إلى أختيكِ يا "ڤاليا" واحذري شريط القطار.

أتمت "ڤاليا" لتوها عامها السابع عشر، وشعرت بمسؤولية الحفاظ على سلامة أختيها التَوأَم. فمنذ أن استشهد الأب في الحرب، أصبحت تحاول ملء فراغ غيابه باهتمامها وتدليلها للفتاتين.

تعرف جيدًا أن الأم لم تتعافَ من مرارة فقدانها لزوجها بعد، وأحيانًا تبكي على زيه العسكري الممزق وسلاح الحرب والقبعة العسكرية، فهي الذكريات الوحيدة المتبقية من ذلك الحب الذي أثمر بإنجابهما الفتيات الثلاث.

لذلك، في كل يوم أحد، تصطحب أختيها إلى الفناء للعب مع زميلتهما "چيكاترينا". يجلس ثلاثتهن في دائرة، وفي أيديهنَّ كراريسهنَّ، ويستمتعن بتأليف القصص عن سكان القرية. فهي أشياء تفعلها الفتيات في عمر الثلاثة عشر عامًا.

تحكي الفتيات عن الحياة المسالمة التي يعيشها سكان القرية هناك تفصيلًا، فصلًا تلو الآخر، عادةً ما تتولى "ڤيلما" مسؤولية تأليف البداية لأنها جيدة في ذلك، ثم تكمل "ڤوندا" بقية القصة - التي عادةً ما تشخص فيها واحدًا من أهل القرية كقائد عسكري، فهي مولعة بقصص الحرب - وتتدخل "چيكاترينا" لتضع نهاية القصة، ليعود الدور إلى "ڤيلما" التي تبدأ في حكي قصة جديدة كانت تشغل بالها.

كانت تعطي الشابة "ڤيلما" إيحاءً بأنها ستصير كاتبة في المستقبل، أما "ڤاليا"، فكانت تشاهد كل شيء من مسافة آمنة وهي تعانق حبيبها، وتتسلى بسماع بعض من حديث الفتيات عما يجب وما يجب ألا يحدث في نهاية القصص ثم تطيل النظر إلى أختيها، فالتوأم متشابهتان للغاية جسديًّا، في الوجه الطويل، العينان الخضراوان تحت حاجبيهما الكثيفين المائلين إلى الشُّقْرَة كلون شعرهما الطويلِ المجعد. ولدت "ڤوندا" بشامة حمراء في الوجه، والتي فعلت كل ما يمكن فعله لتخبئها، ولهذا السبب لم يستطع أهل القرية تمييزهما. أما شخصياتهما، فدائمًا ما كان يعلو صوت

"ڤيلما" عند محادثتها أيَّ شخص وتجادل بكل حماسٍ عندما تريد كتابة القصة بطريقة ما وتختلف معها الأخريات، ولديها، منذ الصغِر، بعض من شر النساء وحيلتهن. أما "ڤوندا"، فهي أكثر خجلًا، ودائمًا توافق على جميع اقتراحات أختها دون تذمر كأنها تخجل من صوتها، وفقط تهمهم على استحياء. التوأم متشابهتان في بعض الأشياء - حتى إن خطهما متطابقٌ للغاية - ومختلفتان كل الاختلاف في الوقت ذاته. صرخت "ڤيلما" وهي تضع كراستها في حِجْرِها قائلة:

- دعونا نوقِف قصتها. إنها مملة!

وتجيب "چيكاترينا":

- لم يتبقَّ المزيد! فقد قطعنا شوطًا طويلًا فيها. يمكنها الهرب في النهاية.

- مع الضابط "ديميتري" أو مع الآخر؟

- مع الآخر طبعًا. إذا هربت مع الضابط لن يكون الأمر ممتعًا!

استغرقن أربع عطلات حتى يكتبن قصة السيدة "هيلجا"؛ فأطلقن العنان لخيالهن حتى شخَّصنَ السيدة "هيلجا" جاسوسةً قادمةً من أرض العدو وممزقةً من حبها الذي تركته في وطنها، الذي ارتبطت به في مهمتها.

بالنسبة إلى "ڤيلما"، فقدت القصة حبكتها منذ وقت طويل، وأصبحت سلسلةً من نظريات المؤامرة التي لا معنى لها. ومن ناحية أخرى، تصر "چيكاترينا" على إنهاء القصة. تبدأ "ڤيلما" قائلة:

- لقد خطرت لي فكرة بالأمس؛ كتابة قصة عن "كريجر"، وسيكون عنوانها "كريجر الوسيم".

استرقت الفتيات بعض النظرات إلى الشاب في محاولة لإخفاء ضحكاتهنَّ. سيكتبن عن حبيب "ڤاليا"! ثم تكمل:

- قصة السيدة "هيلجا" مزعجة للغاية. فلا يمكن لتلك المرأة أن تكون بهذا السوء.. من الأفضل كتابة قصص جميلة، عن أشخاص جميلين. أما السيدة "هيلجا" فهي امرأة غريبة.. لقد أوت ذلك الرجل الغريب الأشبه بالوحش، أما "كريجر" فهو وسيم ولا يمكن أن يكون غريبًا أبدًا.

عندما سمعت أختها تتحدث بجرأة شديدة عن جمال "كريجر"، شعرت "ڤوندا" بالحرج واحمرَّ وجهها دون أن تدري. فمنذ وقت بعيد، بدأت تشعر بإحساس غريب تجاه حبيب "ڤاليا". هي لا تعتقد أنه قد يكون حبًّا، فالحب هو شعور قوي - بالنسبة إلى فتاة عمرها ثلاثة عشر عامًا - حتى تشعر به. ربما هو مجرد إعجاب، فهي تعرف أن "كريجر" يفوق كل فتيان

القرية وسامة وذكاءً، وتعتقد أيضًا أن أختها الكبرى كانت محظوظة للغاية عندما أعلنوا خطبتهما منذ أربع سنوات.

ثم تتذكر أن "ڤاليا" بدأت مواعدة حبيبها عندما كانت في الثالثة عشر.. ثلاثة عشر عامًا! عمرها نفسه الآن! ومع ذلك، فهي ليست قريبة حتى من أن يكون لها حبيب. لا يوجد أحد في القرية مثير للاهتمام بما يكفي.. كـ"كريجر".. الوسيم كالأمراء، القوي و...

تحاول "ڤوندا" إبعاد هذه الأفكار عن ذهنها وتقول:

- من الأفضل أن نُكمِل قصة السيدة "هيلجا".

وتجيب "ڤيلما":

- آه يا "ڤوندا"، ستكون قصة مثيرة للغاية. يمكننا رواية القصة كما لو كان هو حبيبنا.

تضحك مجددًا ثم تكمل:

- "كريجر"، الوسيم، وحبيبتاه. لكن لا يمكننا إخبار "ڤاليا" مطلقًا و...

لا تنتبه "ڤوندا" لما ستقوله بعد ذلك، وتتخيل "كريجر" وهو يمسك يديها ويداعب جسدها كما يفعل مع أختها... فقط تخيل ذلك المشهد يجعلها ترتجف، يخفق قلبها بشكل غريب. بإمكان "كريجر" مواعدة أي فتاة يريدها في القرية، لكنه اختار أختها الكبرى. لا يوجد سبب يدفعه للندم، فـــ"ڤاليا" جميلة. كل ما في الأمر أن حظ "ڤوندا" السيئ هو أنها وُلِدَتْ بعد أختها.

حتى لو كان "كريجر" في عمرها نفسه، فلن يواعدها. وكان سيفضل مواعدة "ڤيلما"، فهي أكثر إثارة وجمالًا. تزعج "ڤوندا" الشامة الحمراء الموجودة في وجهها، رغم مزاعم الآخرين أنها صغيرة، ففي كل صباح، تحرص على وضع مكياج كافٍ لإخفائها وحتى تبدو متطابقة فعلًا مع أختها، لكن دون جدوى. الأمر لا يتعلق بالجمال فقط، إن "ڤيلما" أكثر ذكاءً وحُنكة وصاحبة قرار، أما "ڤوندا" هي مجرد فتاة ساذجة، فتاة ساذجة لا تستطيع فعل أي شيء بشكل صحيح حتى إن أختها أفضل منها في تأليف القصص، لذلك تتولى مسؤولية تأليف البدايات، فهي الجزء الأهم حقًّا.

تحمست "چيكاترينا" وأرجعت كراستها إلى حقيبة ظهرها وأخرجت أخرى فارغة بيديها الصغيرتين الممتلئتين قائلة:

- سأنهي قصة السيدة "هيلجا" في المنزل.. يمكننا أن نبدأ قصة "كريجر".

أخرجت "ڤيلما" ورقتين مطويتين من جيب معطفها قائلة:

- لقد كتبت بدايتها فعلًا عن ثلاثية الحب، أعتقد أن ثلاثية الحب سيكون موضوعًا شائقًا للقصة.

تتنحنح ثم تقول:

- سأتلوها لكن...

تنعكس الشمس على الثلج وتضفي صفاءً غامضًا على اللحظة.

تغلق "ڤوندا" عينيها وتتخيل فقط كلمات أختها العذبة، وصفها الدقيق لوجه "كريجر"، إنجازاته، مهاراته؛ إعجابه غير المتوقع بالتوائم الأصغر سنًّا.. في هذه اللحظة، لا يمكن لـ"ڤوندا" أن تخفي ابتسامة الفخر لأنها ذُكِرَتْ - لأول مرة - في قصة بدأتها "ڤيلما". لن تتمنى "ڤوندا" أبدًا أن تصبح عزيزتها "ڤاليا" الأخت الكبرى عانسًا، وأن تبقى دون حبيب. فهي قصة من ضرب الخيال فقط، أليس كذلك؟ فالمتعة تكمن في تغيير الواقع قليلًا! بثلاثية الحب الذي سيصدم قرية تقليدية بأكملها ضائعة في وادٍ محاط بجبال من الجليد.

سيحل دور "ڤوندا" قريبًا، وسيكون عليها التفكير في كيفية سرد هذه القصة، يجب أن يكون هناك شكل من أشكال الصراع: فلا يمكن أن تدوم ثلاثية الحب بشكل متناغم مدةً طويلةً.. هل يمكن أن تتمنى "ڤاليا"، الأخت الكبرى، سعادة الأختين الصغيرتين، دون أن تجد فارس أحلامها؟

من جانب ما تتحمل الخسارة.. فالأمير يوقظ أميرة واحدة فقط بقُبلته، ويترك الأخريات وراءه منسيات ووحيدات. على الأقل في الخيال، يجب ألا تُترك "ڤوندا" وحدها وتُنسَى. فهي الآن بطلة القصة. إنها في حاجة إلى التخلص من الأخريات اللاتي يمثلن عقبة في طريقها: "ڤيلما"، شبيهتها، لكنها أكثر جاذبيةً؛ و"ڤاليا"، التي تكبرها سنًّا وفي حاجة إلى حبيب، التي تقف ضد علاقتها مع "كريجر". كيف ستواجه كل هذه الأمور؟ لا يمكن أن تكون بهذه الصعوبة.. في الخيال، كل شيء ممكن.

ضحكت ضحكة على استحياء.

ثم شتت انتباهها صوت القطار البخاري الذي يقترب، محطة القطار مهجورة، نزل من القطار شيخ فقط، كان يحمل في يديه حقيبة حمراء. ومن بعيد، غمز الشيخ إلى "ڤوندا" وذهب في اتجاه الشارع الرئيسي. "ڤوندا" متأكدة أنها لا تعرفه، لكنها لا تُدهَش. عدلت عن تفكيرها في ذلك الغريب ورجعت إلى الفكرة التي كانت تشغل بالها قبل وصول القطار

مباشرة، حاولت إبعادها مرة أخرى، لكن بات ذلك مستحيلًا الآن. لقد صارت مهووسة بها حتى أصبحت ترتجف، فهي أنسب طريقة لتصبح أميرة "كريجر".

جريمة قتل..

كان وقع الكلمة كالدغدغة عليها حتى إنها وجدت متعة في مجرد التفكير فيها. قرأت كتابين من كتب الجرائم التي كانت موجودة في هذه الأيام، وأدركت أنها لن تقدر على ارتكاب مثل هذه الجريمة البشعة. وأنها مفارقة كبيرة تصوير القتل في الخيال كحل للمشكلات.

إذن القتل هو الحل. لكن من ستقتل على أي حال؟ "ڤاليا"؟ "ڤيلما"؟ هل لديها الشجاعة للتخلص من الأختين اللتين تحبهما كثيرًا؟ لا! أبدًا! فما الهدف من قتل الأختين للعيش بسلام مع "كريجر"؟ ماذا لو انتهى الحب إلى لا شيء؟ ماذا لو، بعد قتل الأختين، طرقت التعاسة بابها مرة أخرى؟ من يضمن لها مستقبلها مع "كريجر"؟ فـــ"ڤاليا" سعيدة وتشعر أنها مكتملة برفقته، لكن هذا لا يعني أنه سيحدث الأمر نفسه معها، بل يمكن أن يسوء. إذا لم تتمكن هذه الفتاة البلهاء قليلة الحيلة من ارتكاب الجريمة المثالية، فسوف ينتهي بها المطاف في سجن العاصمة، ذليلة.

موت "كريجر" هو الحل الأمثل. إضافة إلى كونه مفاجئًا (فلا يتوقع أحد أن بطل القصة سيُقتَل)، لكن موت الحبيب سيذلل جميع عقبات الخطة، حتى إنه سيعطي فرصة لتحزن الأميرة وتعاني، نهاية مأساوية لكنها شاعرية.

شعورها تجاه أختها التي تكاد تفيض سرورًا وتذهب لتتعطر كالهوانم، أكبر منه تجاه "كريجر"، الوسيم، الجذاب، الذي لا يكترث للعيش معها.

تندمج أحلام اليقظة مع الواقع. في الخيال، الأخت الكبرى عانس وحيدة، أما في الواقع، فهي تعيش بسعادة مفرطة وهذا يسبب لها شعورًا غريبًا، أحيانًا غير واضح، تشعر بالحنين إلى العودة إلى الماضي حيث كانت تلعب "ڤاليا" معهما، بدلًا من وجودها الآن على بُعد أمتار وهي تعطي كل اهتمامها لحبيبها.

جريمة قتل.

أصبح بإمكان "ڤوندا" رؤية سيناريو دفن الشاب "كريجر" أمامها، الذي سيموت بشكل غير متوقع.. و"ڤاليا"، جريحة، تجد في التوأم تهويدة لألمها الداخلي.. إن قتل شخص ما ليس بالأمر الصعب. في نهاية الأمر، يمكنك فقط ضغط الزناد أو وضع عشبٍ سامٍ في مشروبه أو الضغط على عقدة الحبل الملفوف حول رقبته الغافلة.

لقد اكتملت الخطة، لا تشوبها شائبة؛ جريمة وجيزة ونظيفة، وبلا شهود ولا دليل ودون حاجة مشؤومة إلى تلطيخ يديها بالدماء. عليها تنفيذها على الفور قبل أن تفقد شجاعتها. هذه الليلة؟ نعم، الليلة هي أفضل توقيت. كل شيء سيصبح...

تقاطعهنَّ "ڤاليا" قائلة:

- هيا يا فتيات، هيا! طلبت منا أمي ألا نتأخر كثيرًا. فهي ستتناول العشاء مع عائلة "سوهانوف" وعلينا الذهاب إلى الفراش مبكرًا.

تأخذ الأختان "ڤوندا" و"ڤيلما" من أيديهما. وتستعد "چيكاترينا" أيضًا للمغادرة وتقول إنها تفضل لقائهما في منزلها في المرات القادمة، دون إعطاء أسباب، لكسر عادة التقائهن في الفناء الذي يقع غرب محطة القطار، فتعترض "ڤيلما".

عندما وصلن إلى الشارع الرئيسي، بادرت "ڤوندا" وتغلبت على خجلها وأعطت "كريجر" ورقة مجعدة من كراستها سرًّا. أخبرته أن "ڤيلما" قد أرسلتها إليه وأنها تعده بشرح كل شيء لاحقًا. كان ينوي الفتى أن يسأل عن شيء، لكنه تراجع لأنه اعتقد أنها ربما كانت مزحة أطفال، وبابتسامة، أدرك أن الأمر سري.

في أسرع وقت ممكن، فَرَدَ الورقة وقرأها:

"اليوم. في الفناء. الساعة العاشرة. الأمر بخصوص "ڤاليا". مفاجأة. عليك أن تأتي".

إمضاء: "ڤيلما"

عَبَس وجه "كريجر". ما الذي يمكن أن تريده أخت "ڤاليا" الصغرى منه؟ على أي حال، سيذهب إلى هناك في الزمان والمكان المتفق عليه. أثاره الفضول في تلك اللحظة تحديدًا.

شعرت "ڤوندا" أن ساقيها ترتجفان من الألم، ثم حاولت أن تشدَّ من نفْسِها وتعثر على مكان آخر خلف إحدى الأشجار القليلة في الفناء، حتى لا يراها "كريجر" عندما يصل. كانت تنظر في توتر إلى الساعة في محطة القطار المهجورة. دقَّت الساعة 22:04. لقد تأخر وسيمر آخر قطار خلال ست عشرة دقيقة.

توخَّت الحذر عند مغادرة المنزل. خلدت "ڤاليا" إلى النوم لتوها، وكانت "ڤيلما" نائمة منذ ساعات. وضعت مكياجها كالمعتاد، واقترضت معطفًا من خزانة "ڤيلما". اختارت الأزقَّة والحارات الأقل ازدحامًا هاربة من مراقبة الجيران الثرثارة ونجحت في ذلك.

إنها الساعة 22:12 دقيقة.

سرعان ما تحول حماسها إلى خيبة أمل. من الواضح أن خطتها البارعة أثبتت فشلها في مراحلها الأولى. أرادت البكاء، ولكن توقفت دموعها بسماعها صوت وقع أقدام، كصوت خطوات الجاسوس، إنه "كريجر".

نهضت من المخبأ بحذر. وجلس الفتى على الأرض منتظرًا. مشيت "ڤوندا" في صمت وفي يدها اليمنى حجر ثقيل وبارد. رفعته بكل سرعتها، لاحظ الفتى اقترابها منه ولم يكن لديه وقت لتفاديها فأصابته بالسلاح مباشرة في أعلى رأسه ومُزِّقَ جلده وفقد "كريجر" وعيه متأوهًا.

بصعوبة، جرَّت "ڤوندا" جسد الفتى على القضبان، فهي ليست قوية بما يكفي، إنها في الثالثة عشرة من عمرها، نظرت إلى ساعة المحطة مرة أخرى. إنها الـ 22:17. في غضون ثلاث دقائق، سيمر القطار دون تأخير. لن يكون السائق قادرًا على التوقف في الوقت المناسب وسيعتقد الجميع أن الشاب "كريجر" لقي مصرعه لأنه كان شارد الذهن وهو يعبر قضبان القطار في تلك الساعة. بحثت في جيوبه حتى وجدت الرسالة التي كتبتها في وقت سابق وتفتخر بأنها تذكرت استعادتها. جريمة دون أي دليل، كما تجب أن تكون!

عادت "ڤوندا" إلى مخبأها خلف الشجرة وشعرت بالإثارة عندما سمعت صفارة القطار الذي كان يقترب. ابتسمت إلى "كريجر"، فاقد الوعي، الذي

كان على وشك أن يلتهمه القطار الذي كان يقترب بكل سرعته. لكن حدث كل شيء في ثوانٍ. فتح "كريجر" عينيه محركًا ذراعه، ليدرك أنه على وشك الموت والتقت نظرته المذعورة بنظرة "ڤوندا". تقدم القطار وصرخ "كريجر" زاحفًا ومصابًا بالدوار في محاولة للابتعاد عن القضبان ثم صرخ صرخة وحشية في أثناء مرور القطار وتدفق دمه من ساقيه المحطمتين.

ارتجفت "ڤوندا" من الخوف، إنه لم يمت. ركضت إلى المنزل ولديها رغبة عارمة في البكاء. شغلت ذهنها بالتفكير، ولكن يا للأسف لا يوجد حل، فقد رآها، وعرف أنها المسؤولة عن كل ذلك. سيُقبَض عليها. وتُنبَذ من أسرتها وتحتقر من القرية كلها. لماذا تفعل كل شيء بطريقة خاطئة دائمًا؟

دخلت إلى المنزل وهي تلهث وحبست أنفاسها حتى لا توقظ أحدًا. فكرت في "ڤاليا"، التي أصبح حبيبها كسيحًا الآن. هل ستظل تحبه على أي حال؟ مرت بغرفة والدتها التي لاحظت أنها لم تُعد بَعد من عشاء آل "سوهانوف" وفي أثناء مرورها بغرفة نوم "ڤيلما"، خطرت لها فكرة.

تحتاج هذه الفكرة إلى شجاعة، ولكنها... لا تريد دخول السجن.

فتحت الكراسة وكتبت خطابًا موجزًا ثم عادت إلى الصالة، وتسلقت كرسيًا لتلتقط مسدس والدها المحفوظ في الرف العلوي للخزانة، وتوجهت إلى غرفة التوأم، ثم التفَّت يداها العارقتان حول قبضة المسدس الباردة

ونظرت إلى صدغ "ڤيلما" الأيسر. إن أختها عَسْراءُ، وقد تعلمت من الكتب البوليسية أن الأشخاص العُسْر يقتلون أنفسهم بيدهم اليسرى. أغلقت عينيها، وأطلقت النار.

بسرعة يائسة، خلعت معطفها ووضعته على جسد "ڤيلما" الساكن. سال الدم من رأسها ليغمر الوسادة. تركت الورقة التي أعطتها "كريجر" في جيب المعطف، إلى جانب الرسالة التي كتبتها للتو، وعادت إلى غرفتها بسرعة واستلقت تحت الأغطية، وعيناها مغمضتان، تستمع إلى صوت أختها، "ڤاليا"، التي استيقظت في الطابق العلوي، واندفعت نحو السلم، بقدمين متوترتين على الأرض. وأخيرًا، صرخت صرخة من يرى جثة أمامه، كانت صرختها تصم الآذان.

استيقظت "ڤوندا" متظاهرة بالنعاس، وركضت إلى غرفة نوم أختها ووجدتها تعانق جسدها الساكن، وخطاب الوداع مَسْحوقًا في يديها المرتعشتين.

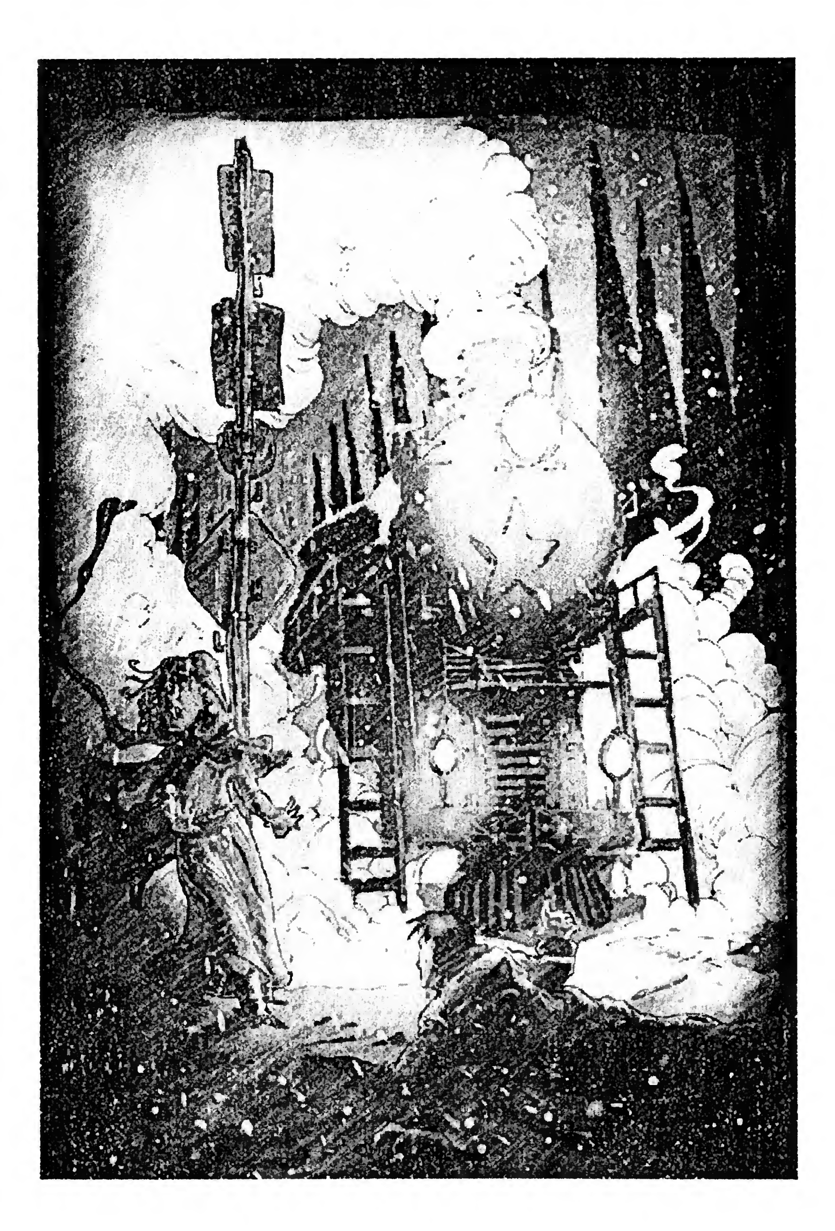
بعد مرور أيام، نُشرت رسالة انتحار الفتاة "ڤيلما" في الصحيفة المحلية وامتلأت القرية بأكملها بالقيل والقال حول كل تفاصيل الخطاب المباشر:

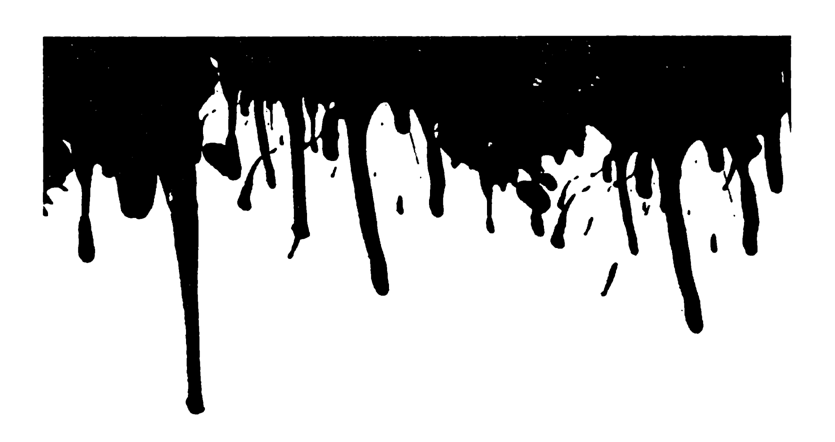
"أنا أعرف ماذا أفعل. اعذريني يا "ڤاليا" لأنني حاولت قتل "كريجر"، فأنا عرفت عنه أشياء بشعة جعلته يستحق الموت. أشياء فعلها معي، ولكنه سينكر فعلته إلى الأبد. هو شخص سيئ. لقد آذاني. يجب أن تبتعدي عنه. فهذا أمر خطر. أريد الاعتذار عن

كل ما فعلته، ولا يمكنني العيش مع كل الذي حدث. أنتِ أخت رائعة يا "ڤوندا"، وكاتبة عظيمة أيضًا. أحبكما وأحب أمي كثيرًا".

ابتسمت "ڤوندا" بسرور كلما سمعت شخصًا من أهل القرية يعلق على رسالة الانتحار. لم يشك أحد في شيء. وفي كل ثانية تمر، تتأكد مما كان مكتوبًا في النص: "إنها حقًا كاتبة عظيمة".







الكِبَـر

"لوسيفر"



الزنجي الأعور

وصل الرجل الزنجي إلى القرية في صباح أحد أيام الشتاء، كنسمة الهواء التي تنتقل بين المنازل. أثار خبر مجيئه قلق أهل القرية كأنه حدثٌ تاريخي، فهم ليسوا معتادين استقبال الغرباء، والقلة الذين يأتون إما سائلون للطعام وإما يجمعون الضرائب. لم يأتِ أي شخص لديه لون البشرة داكنة نفسه كسواد الليل، فعمَّ الخوف بين أهل القرية واستُدعِيَ رجالها على الفور.

نجح "إيڤان" الحداد، بقوة وبراعة، في القضاء على الخطر، فضرب الرجل الزنجي على رأسه، وقيَّده بحبلين خشنين في سور المنصة التي تقع في الميدان الرئيسي. توقف كبار السن عن لعب الشطرنج لرؤية هيئته المتوحشة، إذ أغمض الأشخاص الأكثر تأثرًا بالمشهد أعينهم، وكانت ترتجف جفونهم لرغبتهم في فتحها مرة أخرى حتى يروا ذلك الرجل الزنجي.

وبعد مرور عدة سنوات، عندما سُئِلَ "إيڤان"، رفض التعليق على تفاصيل هيئة الغريب ورفض أيضًا إعطاء انطباع عن المشاهد التي تَلت القبض عليه.

كالآخرين، يحاول نسيان الأشهر التي قضاها الرجل الزنجي في القرية، بحثًا عن أطفاله.

حتى مع وجود ذكريات مشوشة عن تلك المدة، ذات صباح، بعد شربه العديد من زجاجات الفودكا، تذكر "إيڤان" مشهد وصول الرجل الزنجي إلى القرية، وقال لرفاقه الثملين:

- كانت بشرته سوداء كما لو أنها احترقت في نار الجحيم لقرون، وأسنانه مُعوجَّة وملطخة بالدماء البشرية، ويداه عريضتين وخشنتين، فعندما لمستهما، شعرت أنهما مختلفتان أيضًا. لم يكن إنسانًا، لا يمكن أن يكون كذلك، لقد كان ذلك واضحًا في لون جلده الأسود. كان ذا عين واحدة فقط، أما الأخرى فكانت حفرةً؛ تجويفًا من الجلد المترهل الذي لا يمكن لأحد أن يطيل النظر إليه. يمكنني تخيل الفظائع التي ارتكبها الرجل حتى أدت إلى اقتلاع إحدى عينيه، ولكن هذا لا يهم الآن. لو كنت أعرف، لكنتُ قطعت رأس ذلك الشيطان هناك في الميدان، أمام الأطفال وكبار السن.

في الحقيقة، أجمع أهل القرية على قطع رأس الزنجي الأعور عندما قُبِضَ عليه، حتى أكثر السيدات تدينًا وعطفًا أيدنَ قتل ذلك الوحش الغريب الذي كان يزأر مع كل ركلة أو لكمة يتلقاها من "إيڤان".

وبمساعدة رجال آخرين، استطاع "إيڤان" السيطرة على الوحش وإيقاف صراخه الذي كاد يصم آذانهم، وحتى بعد مرور عدة سنوات، لا يزال صدى صراخه يتردد في آذان أهل القرية. غطوا رأس الزنجي بجوال البطاطس لإخفاء ملامحه المشوهة عن الأطفال، وكان يرتجف جسده مفتول العضلات العاري بسبب الرياح الباردة.

لَوَى "إيڤان" الحداد ذراع الرجل الزنجي ذي العين الواحدة وأجبره على الانحناء، ودفع برأسه الضخم إلى الفجوة الموجودة بين القضبان الحديدية للبهو، رافعًا فأسه. أمر الأمهات الحاضرات بتغطية أعين أطفالهن. سقطت قطرة من العرق على جبين الحداد ثم سقطت على جوال البطاطس، يتأوه الرجل الزنجي ويرتعد خوفًا، لكنه يقبل المصير الذي كُتِبَ له في الحياة.

- لا! هل جننتم؟ توقفوا على الفور!

لفت الصوت الأنثوي اليائس للشابة أنظار الحشد الصغير الذي كان يشهد لحظة إعدام الوحش.

اقتربت من جلاد الفأس المرفوع في الهواء وتوسلت مجددًا قائلة:

- لا تفعلوا ذلك!

فلولا تدخل السيدة القديرة "هيلجا"، زوجة العقيد "ديميتري"، لقُتِلَ الزنجي الأعور أمام الجميع، تمامًا، وهذا ما ندم "إيڤان" على عدم فعله.

- إنه إنسان، فهل فقدتم بصركم؟ كيف تجرؤون على معاملة إنسان كالوحش؟ ألا تخشون عدالة السماء؟

- إنه مسخ أيتها السيدة "هيلجا"، الأمر هو أنكِ لا تدركين وجود الشر أبدًا، إن ذلك الزنجي هو مجرد مسخ.

- إنه إنسان مثلنا تمامًا يا سيد "إيڤان"، ماذا فعل حتى يستحق ضربه بالفأس في عنقه؟

أسرع "إيڤان" في الشرح:

- إنه زنجي شديد السواد يا سيدتي وأعور العين أيضًا. فحضرتكِ لم ترِي وجه هذا الشيء ولن ترغبي في رؤيته إذا كنت لا تريدين أن تحلمي بكوابيس هذه الليلة.

- لقد رأيتُ وجهه يا سيد "إيڤان"، إنه كوجه أي رجل عادي، مطارد وخائف.

- قلتُ لكِ إنه مسخ، وتوجد دماء على أسنانه.

- على الأرجح أنه افترس بعض الحيوانات ليصل إلى هنا حيًّا، فليس من الغريب وجود دم في أسنانه.

- إنه يتفوه بكلام غير مفهوم وهمهمات شيطانية.

- يا سيد "إيڤان"، رجاءً، إنها ليست همهمات شيطانية. هو أجنبي دون شك ولا يتحدث لغتنا.

- إنه رجل زنجي وأعور ويتحدث لغة الشياطين، كيف يمكنك أن تدافعِي عنه يا سيدة "هيلجا"؟

انزعج الحداد من تدخل السيدة ذاك المبالغ فيه.

- العالم لا ينتهي عند حدود هذه القرية النائية يا سيد "إيڤان"، هناك لغات أخرى وألوان بشرة أخرى، وحقيقة أن بشرتنا بيضاء وعيوننا ناصعة اللون لا يجعلانا أفضل من الآخرين أو أسوأ.

تصيح مجموعة من أهل القرية قائلين:

- نحن أفضل من هذا الزنجي الأعور ونريد إراقة دمائه، أو أيًّا ما كان يجري في عروق هذا الوحش.

قررت السيدة "هيلجا" أن تتحدى "إيڤان" بحزمٍ قائلة:

- سأصطحبه معي، لا داعي لقتله، فأنا أحتاج إليه لكي يساعدني في أعمال المنزل خاصة بعد ولادة "إيوري" وهذا الرجل يمكنه مساعدتي.

- سيدتي، هل ستأوين هذا الوحش داخل منزلك؟ حتى يعتني بطفلكِ؟

- هذا ليس من شأنك يا سيد "إيڤان"، فأنا أعرف ماذا أفعل.

- لن يسمح العقيد بذلك أبدًا.

- سأتحدث في ذلك الأمر مع زوجي عند عودته، والآن أطلق سراح الرجل وإلا عليكَ تسوية الأمر مع العقيد عندما يعود.

في الأسابيع التالية، ظل أهل القرية يراقبون الزنجي الأعور الذي يعيش الآن في كنف السيدة "هيلجا"، في شكٍ. وبعد عودة العقيد "ديميتري" من رحلته، استمع بتحفظٍ الأخبار الجديدة التي سردتها زوجته ثم أجاب:

- يمكن أن يمثل خطرًا علينا.

أوضحت السيدة "هيلجا" أنه مجرد مسكين في حاجة إلى المساعدة وأكملت:

- يعتني الزنجي بالحديقة وينظف المنزل ويلمِّع النوافذ ويغني لـــ"إيوري" حتى ينام دون أن ندفع أي شيء. لقد كنتُ أبذل جهدًا كثيرًا حتى وصوله، ومنذ ذلك الوقت وأنا أكرِّس مجهودي أكثر لابننا. يمكنك اعتباره نوعًا من الاقتصاد والعمل الخيري في الوقت نفسه.

كالعادة وافق الزوج في نهاية الأمر شيئًا فشيئًا، علَّمت السيدة "هيلجا" الرجل خياطة الأقمشة وإعداد الطعام والتحدث بلغتهم.

ذات مرة، حاول التحدث باللغة الجديدة قائلًا:

- اسم "موبوتو".

صححت له السيدة "هيلجا" وقد كانوا يطهون البطاطس:

- رائع! ولكن ينقصك حرف. "اسمي موبوتو". هيا كرر معي: "اسمي موبوتو".

- اسمي "موبوتو".

تقول وتشير بجسدها حتى يكرر الرجل الكلام نفسه:

- حسنًا! ساعدني الآن في حمل هذا القِدْر، فلا يمكنني أن أُحرق. خذ قِدْرَ البطاطس واسكب مياهه في الحوض. في الحوض. ضع ثمرتين من البطاطس في الطبق، لا لا فقط اثنتين، انظر إليَّ.

أنصت "موبوتو" إلى تعليمات سيدته التي أعطته شوكة ذات أربع أسنان.

- شوكة ذات أربع أسنان، انظر يا "موبوتو"، لكي نحصل على البطاطس المهروسة علينا عجنها جيدًا، فصغيري "إيوري" لا يمكنه مضغ القطع الكبيرة، انظر، يجب هرسها كذلك.

يلتقط الشوكة ويهرس البطاطس كما علمته سيدته ويقول:

- "إيوري" الجميل. "طافل" جميل.

- إنها طفل وليست "طافل".

- "إيوري" طفل جميل.

تقول السيدة "هيلجا":

- حقًّا، إنه جميل جدًّا. هل لديك أبناء يا "موبوتو"؟ أتفهمني؟ "أطفال"؟

- "اثنين بنت"، في الحرب، ماتت الزوجة، خُطِفَتْ البنات، "موبوتو" دون عين. في الحرب.

لم تعرف السيدة "هيلجا" كيف يجب أن تجيبه، فلم تتخيل أن ذلك الزنجي سيأتي ليُبكيها. وقالت:

- أشعر بغاية الأسف. هل هرِبت؟

أعطى "موبوتو" طبق البطاطس المهروسة لسيدته وقال:

- "هرِبت". حرب يا سيدة "هيلجا". "موبوتو" "هرِبت".

راقبت السيدة "بريجد" شقيقة السيدة "هيلجا" على مضض تطور الزنجي. ففي البداية، كانت ضد فكرة إيوائه، وبمرور الأيام، تفاجأت بتطور المهارات الاجتماعية لذلك الوحش، ثم قالت لأختها ذات نهار:

- إنه رجل صالح.

وقالت لها "هيلجا" في أثناء جلوسهما في مقاعدهما المريحة أمام المدفأة تحيكان ملابس "إيوري"، الذي يختبئ تحت الأغطية في مهده:

- لقد فقد زوجته في الحرب، وخُطِفَتْ ابنتاه أيضًا، هذا ما فهمته منه.

- خُطِفَتَا؟

- هذا ما قاله، خطفهما شخص أجنبي وعلى ما يبدو أنه تتبع خطواته حتى وصل إلى هنا.

- ترى لماذا قد خُطِفَتْ ابنتاه إذا كان شخصًا صالحًا إلى هذا الحد؟

- لا تكونِي بلهاء يا "بريجد". لاستغلالهما في البغاء طبعًا! فالعاصمة تعج ببيوت البغاء الممتلئة بأولئك الفتيات المساكين اللاتي يُستقطبن من إفريقيا والأمريكيتين.

- هل يعتقد الزنجي أن الخاطف هنا؟ في القرية؟

استنكرت السيدة "هيلجا" وهي تهز رأسها الأشقر قائلة:

- قطعًا لا. من المستحيل أن تكون هاتان الفتاتان في القرية، فأهل القرية يعرفون بعضهم بعضًا. من المؤكد أنهما في العاصمة.

وأكملت:

- فهو لا يستطيع مواصلة بحثه عنهما الآن، ليست لديه نقود ولا يتحدث لغتنا. فإذا واصل البحث الآن، سينتهي به الحال وهو ميت أو سجين، كما كان على وشك الحدوث. في الحقيقة أنا لا أدفع له شيئًا ولكنني أطعمه على الأقل.

في تلك اللحظة، سمعت ثلاث طرقات على الباب. سارع الزنجي لفتحه واستقبال الزائر منحنيًا كما علمته سيدته؛ إنه شيخ لديه شعر أبيض قليل تحت قبعته المصنوعة من الوبر، ولديه ابتسامة بشوشة مرسومة على جلده المتجعد. أجبر ظهر الرجل المنحني السيدة "هيلجا" على تقديم مقعدها له مع أنها لم تره من قبل.

- معذرةً أيها السيد، من تكون؟

تركت السيدة "بريجد" إبرتها وجوارب الصوف على المنضدة الموجودة في المنتصف لتنصت إلى الغريب.

تمتم الشيخ لاهثًا، كما لو أنه توقف الآن لالتقاط أنفاسه منذ عقود:

- أتيت من بعيد، سيداتي. لأنني في حاجة إلى المال ولكن لم آتِ للسؤال، حاشا للرب؛ إنه إذلال لرجل في مثل سني، ولكنني أتيت لبيع أغلى ما أملك.

بصعوبة شديدة، رفع الشيخ الحقيبة الحمراء التي كان يحملها في يديه وفتحها على ركبتيه وأخرج منها حيوانًا يشبه الفأر وقال:

- إنه جرو حديث الولادة من فصيلة "الهاسكي".

- يا له من جرو جميل! ولكنني لا أعرف إذا كان الوقت مناسبًا لإيواء كلب. إن زوجي...

كان العقيد "ديميتري" في المدينة منذ أسابيع، يستعد لاندلاع حرب محتملة ضد تحالف الدول المجاورة المتمردة، وقليل من يعرفون ذلك في القرية. في تلك اللحظة، دون قصد، كادت السيدة "هيلجا" تعطِي شخصًا غريبًا معلومات مهمة.

- علمت أن لديكِ طفلًا يا سيدتي، ألا تعتقدين أنه من الجيد أن يكون لدى طفلكِ كلب ليلعب معه؟

- لا أعرف، فـــ"إيوري" لا يزال صغيرًا.

- هذا لا يهم يا سيدتي، فهذا الجرو يعيش سنوات طويلة؛ أمه ماتت بعد أربعة عقود! هل لكِ أن تتخيلي ذلك؟ هذه فصيلة ليست عادية...

- أعتذر منكَ أيها السيد. فقد قلت لكَ إن زوجي ليس موجودًا بالمنزل ولا نملك الكثير من النقود.

- يمكنكِ الدفع وقتما تستطيعين يا سيدتي، سمعت أن لديكِ قلبًا طيبًا، فقد آويتِ زنجيًا مشوهًا طارقًا بابكِ.

- لا تتحدث بهذه الطريقة عن "موبوتو"، إنه إنسان مثلنا.

يبتسم الشيخ المنحني قائلًا:

- أعتذر منكِ يا سيدتي، ولكن يؤسفني أنكِ مخطئة، فخلال السنوات العدَّة التي عشتها، أتيحت لي فرصة زيارة أرض هؤلاء البشر، إفريقيا. إنهم شعب متوحش يعيش بهمجية، كلهم عنيفون ووقحون. أعتقد أنه من الرائع

أن ترحبِي به بذراعين مفتوحتين، ولكن إذا كان هو في مكانكِ، لطهانا في المرجل وقدمنا كوجبة غداء.

- معذرةً يا سيدي ولكنني لا أصدق ما تقوله.

- إنها الحقيقة يا سيدتي. لا داعي للشك، تأكدي أننا أفضل، فقط انتبهي للأفعال الصغيرة، لوحشية هؤلاء الرجال وعضلاتهم المفتولة التي تشبه الآلات.

- لقد أسأت الأدب أيها السيد ويجب أن تغادر في الحال.

ينهض الرجل قائلًا:

- سأغادر يا سيدتي، ولكن يجب أن تحذري! فهم كائنات غير عقلانية وغير صبورة قد تنفجر في أي لحظة، إنهم حيوانات أكثر من كونهم بشرًا...

- رجاءً أيها السيد!

توقف الشيخ عند مدخل البيت قائلًا:

- مع وجود الزنجي في منزلك، ربما تحتاجين إلى صديق مخلص لحمايتكِ. يمكنكِ الاحتفاظ بـ"أستور".

يترك "الهاسكي" الصغير على السجادة ويغلق الباب وراءه.

في ليلة أحد أيام الربيع، وصل العقيد "ديميتري" إلى المنزل مبتهجًا، وقَبَّل وجنتي زوجته التي لم يرها منذ شهور، وأخبرها أنه رُقِّيَ إلى رتبة لواء ثم ركض إلى مهد الصغير "إيوري" وضمَّه بين ذراعيه. بدا راضيًا عن حالة ابنه التي بدت صحية للغاية، وأثنى على "موبوتو" لتهذيبه وتفاجأ بالكلب الذي قفز على رجليه. فقالت السيدة "هيلجا":

- اسمه "أستور". إنها قصة طويلة...

أوضح السيد "ديميتري" أنه مرَّ حتى يودعهم وطلب منها أن تحضر له أمتعة جديدة، إذ إن الحرب اندلعت في المدينة ويحتاج إلى الانضمام إلى الكتيبة هناك على الفور.

عندما رحل الزوج، اجتاحت الوحدة حياة السيدة "هيلجا"؛ فطبعًا تنشغل بالصغير "إيوري"، ومن حين إلى آخر تأتي السيدة "بريجد" للثرثرة معها، ولكن لم يعد يؤثر فيها لا صراخ الصغير ولا الثرثرة عن أهل القرية.

في الأشهر القليلة التالية، بدأت تشعر بفراغ ناجم عن الرتابة، وباتت تراقب تحركات "موبوتو"؛ فعندما وصل، كان الزنجي يتطور بطريقة مثيرة للاهتمام ويكتسب المهارات بسلاسة الحكماء، أما الآن فيبدو أن رغبته

في التعلم قد تلاشت لتحلَّ محلها لامبالاة مُسْتفِزة، وعدم الرضا المرسوم بدقة في خطوط وجه الأسود الغليظة. لم يعد الزنجي سعيدًا هناك، ولم يعد أحد سعيدًا هناك أيضًا.

يبدو أن "موبوتو" قد أدرك أنه مُقدَّر له الموت في القرية، وهو ينفض غبار الغرف ويهرس البطاطس المسلوقة لإطعام "إيوري" الصغير، فلم يعد يكفيه أنها تطعمه كل يوم. لقد أصبح غير راضٍ عن العيش في ذلك المنزل دون أن يربح قرشًا واحدًا، وأصبح كسولًا، لا يبذل أي جهد ولا حتى للتحدث بشكل صحيح ولا لأداء الواجبات المنزلية بشكل صحيح.

"إنهم شعب متوحش يعيش بهمجية، كلهم عنيفون ووقحون...".

دون أن تلاحظ ذلك، تبدأ السيدة "هيلجا" بمناداته "الزنجي" كبقية أهل القرية، بدلًا من "موبوتو".

"تأكدي أننا أفضل...".

أصبحت تجد العديد من العيوب في الرجل؛ الطريقة القذرة التي ينظف بها النوافذ، وطريقة كنسه للمنزل على عجالة، وهرسه البطاطس بشكل سيئ، ولا ترى أي مظاهر لشكر الزنجي، فقط مجرد سلعة مزعجة، أشبه بالكلب العجوز المُتعَب الذي يشغله الأكل فقط ولم يعد صالحًا لأي شيء آخر.

لم تعد السيدة "هيلجا" تشعر بالأمان في وجود الزنجي في المنزل، وقررت خلق قواعد جديدة للتعايش في المنزل. سيصبح طعام الزنجي مختلفًا عن طعامهما، فلا فائدة من إهدار اللحم لإطعامه مقابل لا شيء، واشترت أغلالًا لتقيده بها لإبقائه تحت السيطرة، إذ قيدت يديه في القبو كل ليلة قبل النوم ونفَّذ الزنجي أوامر سيدته دون تذمر.

"فقط انتبهي لأفعاله الصغيرة...".

عندما كانت تذهب إلى المدينة، كانت تشتري العصي والمجاديف للسيطرة على "موبوتو" وتأديبه. واصل الزنجي أداء الوجبات بطريقة بشعة، وعاند فهَرَسَ البطاطس بلامبالاة وترك قطعًا كبيرة في طعام "إيوري".

التقطت السيدة "هيلجا" شوكة أخرى وكررت الهرس وهي تأمره قائلة:

- أمْسِك الشوكة جيدًا واهرِس. فصغيري "إيوري" يمكن أن يموت شَرِقًا، يجب أن تهرسها جيدًا أيها البائس، فهذه القاذورات تبدو كأنها أدمغة.

ارتبك الزنجي وبالكاد استطاع حمل الشوكة ذات الأربع أسنان في يديه. بدا حزينًا لتصرف سيدته معه ولكنه أطاعها مواجهًا صعوبة في هرس البطاطس، لم ترضَ السيدة "هيلجا" بما فعله وضربته بالعصا.

"لوحشية هؤلاء الرجال...".

أخذ الزنجي يبكي ويعتقد أن في نهاية المطاف كلهم يفكرون بالطريقة نفسها. بدأ يفكر في ابنتيه حتى يستطيع تحمل الألم، فعليه أن يبقى في القرية حتى يعثر عليهما، عليه البقاء قويًا وتحمل كل ذلك.

"وعضلاتهم المفتولة التي تشبه الآلات...".

قالت السيدة "هيلجا":

- أنت عديم الفائدة. لا تشكرني ولو للحظة على ما فعلته من أجلك! أتدري ما الذي كنت أنتظره منك؟ الاحترام! الالتزام! والعمل الجاد على أقل تقدير! ولكن دون جدوى! فأنت لم تفعل شيئًا من ذلك.

"قد ينفجرون في أي لحظة...".

قذفت السيدة "هيلجا" الزنجي بطبق البطاطس وقيدته بالطوق الذي اشترته مع العصي، سحبت السلسلة وأجبرت الزنجي على الانحناء كالحيوان. جلس القرفصاء ثم أخذ يحبو على الأرض فشقت شظايا الزجاج يديه وبدأ الدم يسيل في راحتيه.

- انظر إلى تلك البطاطس! لا يمكنك حتى هرس البطاطس بشكل صحيح! فحتى بعد مرور عدة أشهر، ما زلت لا تستطيع فعل ذلك! كُلْها الآن! ستأكل أنت تلك البطاطس!

تدفع السيدة "هيلجا" رأس الزنجي على الأرض وهو بدوره يتراجع ويقاوم، لكنه كان مجبرًا على أكل قطع البطاطس ومضغها، وكانت توجد قطع صغيرة من الزجاج التي جرحت لسانه وحلقه.

"فهم حيوانات أكثر من كونهم بشرًا...".

وجهت السيدة "هيلجا" الشوكة ذات الأربع أسنان إلى الزنجي قائلة:

- أنت عديم الفائدة! لا عجب أنك فقدت إحدى عينيك في الحرب، لا عجب أن ابنتيك اختطِفَتا وأُجبِرَتَا الآن على ممارسة البغاء مقابل المال! ولن تراهما مجددًا!

أشعل خضوع الزنجي غضب السيدة "هيلجا"، فهو لا يجادل، لا ينتقد، فقط يوافق، إنه هادئ وماكر، يعرف أن عليه البقاء هناك لإنقاذ ابنتيه. تدرك السيدة "هيلجا" أن الزنجي لا يزال لديه سبب للعيش، في حين أنها ليس لديها أي شيء آخر. تتملكها الكراهية وتغرس الشوكتين في قدمي "موبوتو"، كل واحدة في قدم وتخترق أسنانها الحادة عَقِبيْهِ ويصرخ الزنجي من الألم. ثم تأمره قائلة:

- انهض!

حدق الزنجي إلى وجه السيدة "هيلجا"، مدهوشًا مما تفعله، لقد أحكمت القيد وكادت تخنقه. حاول النهوض ببطء، لم يستطع الاتزان، فالشُّوَكُ مغروزة في جسده وهو يحاول أن يتزن، فاحتك بالأرض.

أمرته السيدة "هيلجا" وهي تشد القيد:

- هيا انهض! ستقفز.

خطا خطوة وتأرجح، فالألم غير محتمل، ثم حاول أن يمشي على أطراف أصابعه، فانثنت الشوكتان تحت عَقِبَيْهِ لثقل جسده، لكنها تظل مغروسة في جسده، حتى شعر أنه لن يستطيع الصمود أكثر من ذلك وشعر أنه سيسقط، لذا حاول الاتكاء على السيدة "هيلجا" ولكنها تحتقره، فصدته وحاولت دفعه بعيدًا، لكنَّ الزنجي تصدى لها وهاجمها، ولكمها في وجهها، ومزَّق فمها الذي كان يطلق صرخات عالية. زأر فوق جسد المرأة، يتردد صدى إهاناتها في عقله، مثل التروس التي تحرك الآلة وتحثه على الاستمرار.

انتزع "موبوتو" الشُّوَكَ ذات الأربع أسنان، تاركًا الدم يسيل على قدميه ثم قذفها على السيدة "هيلجا": إنها مثل الآخرين تمامًا، وهي المسؤولة عن

اختطاف ابنتيه، يبتهج وهو يشيط غضبًا وأخذ يغرس الشوكة في عيني المرأة حتى انتزعهما.

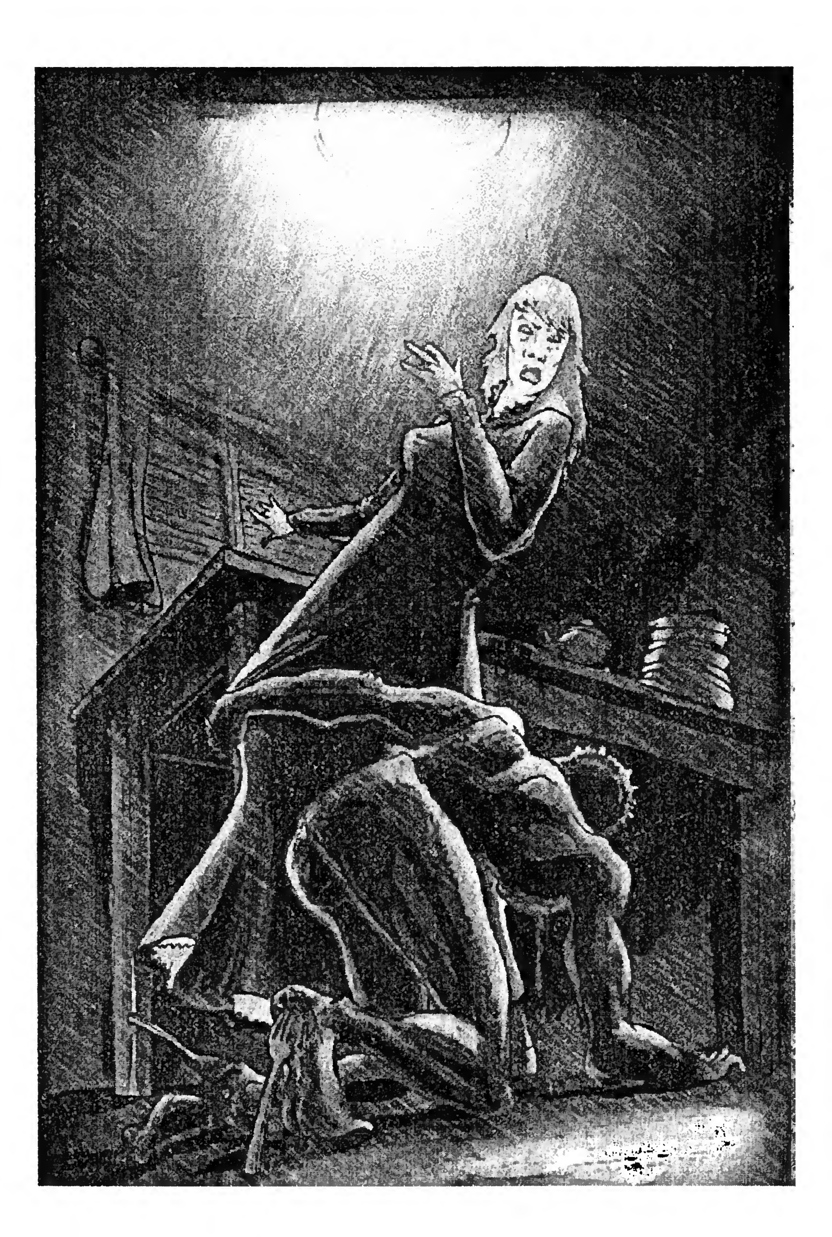
أطلقت السيدة "هيلجا" صرخة مختنقة في حين غرقت يدا الرجل في الدماء، شعرتْ بالغثيان من الألم وفقدت وعيها. وضع الزنجي مقلتي عينيها في طبق نظيف في الحوض وهو يصرخ لاهثًا:

- اهرسها! "موبوتو" يعرف كيف يهرس!

هرس مُقلتي عينيها في الطبق وخلطهما مع البطاطس في عصيدة ذات لون ضارب إلى الحُمرة، حريصًا على عدم ترك أي قطع كاملة؛ فهو لا يريد أن يختنق "إيوري" الصغير.

ترقد الأم في المطبخ، في حين يتلذذ الرضيع بالطعام الذي قدَّمه له الزنجي، حتى إنه كان يفتح فمه مرة أخرى طالبًا المزيد من الطعام عندما يفرغ طبقه. ارتدى "موبوتو" ملابس نظيفة وخبَّأ "إيوري" الصغير في الأغطية وحمله ثم أغلق الباب، دون أن يلتفت.







الشـــهــوة

" أسموديوس"



"چيكاترينا" الحلوة

استطاع "ميخائيل" النوم على أحد المقاعد في الجناح الشمالي لمستشفى المدينة، لكن أيقظه صراخ طفل مصاب بالحمى، يعرق بشكل غير عادي في حِضن أمه. كانت رحلة القطار من القرية إلى هناك متعبةً. وفي الحقيقة منذ أن بدأ كل شيء، لم يعد قادرًا على النوم بطريقة صحيحة، فهو يشعر بالخوف.

بحث عن كوب مياه عند الصنبور، محاولًا تجنب الأشخاص الذين يحدقون إليه بنظرةٍ هي مزيج من الشفقة والاشمئزاز، فعلى الأقل هو ليس معروفًا هناك. لقد عاش السنوات الخمس والعشرين الماضية منسيًّا في قرية لا يزيد عدد سكانها على مائة نسمة ولم يذهب إلى المدينة إلا للضرورة.

تذكر مرحلة العشرينيات بحنين إلى الماضي، إذ كان يجمع النقود القليلة التي كان يحصل عليها من حرفة النجارة ليشتري تذكرة القطار إلى العاصمة، وكان يثمل دون خوف من انتقادات الأشخاص الذين يعرفونه.

وإذا تبقى بعض النقود، كان يذهب إلى بيوت البغاء بعينين مفتونتين بأضواء النيون، إلى أثداء النساء المثيرة اللائي يقدمن له شفاههن الممتلئة. يا لها من أيام خوالٍ!

تردد "ميخائيل" في مواصلة تذكر تلك اللحظات التي كانت ستقوده إلى بداية القصة؛ إلى سرداب الربيع البارد، إلى مشهد "چيكاترينا" وهي عارية ومقيدة. لا، كان هذا منتصف القصة، أما البداية فهي من قبل، ربما قبل ذلك بوقت طويل.

راضيًا، لا يزال بإمكانه تذكر العجوز وتلك الليلة في الحانة. في اليوم السابق، ذهب إلى إصلاح مكتب خشبي في بيت العقيد "ديميتري"، وبالنقود التي حصل عليها من السيدة "هيلجا"، اشترى تذكرة قطار إلى العاصمة، فهو لم يمارس الجنس منذ شهور ولم تعُد ممارسته للعادة السرية كافيةً له في مثل عمره، فكان في حاجة إلى امرأة تشبع رغباته دون تردد.

في ذلك الوقت، كان لدى "ميخائيل" رغبة خاصة في النساء البدينات، فتثيره الأثداء الكبيرة والأفخاذ المترهلة والخدود الممتلئة. وفي تلك الليلة، دفع أجرة أسمن عاهرة في بيت البغاء. كان يتلذذ بمداعبة منحنيات بطنها الجيلاتينية ومداعبة ثديها الهائل.

كان منتشيًا ولكن لا تزال لديه طاقة، طلب الفودكا في حانة بيت البغاء وشربها في رشفةٍ واحدةٍ وطلب كوبًا تلو الآخر ثم لاحظ وجود العجوز الذي كان يجلس على كرسي رفقةَ فتاةٍ مرتمية في حِضنه. لم يكن "ميخائيل" متأكدًا، لكن يمكن أن يقسم إنه رآه أولًا ثم بعد ذلك لاحظ وجود الفتاة في حِضنه. لم يثمل العجوز قط - فهو يتذكر ذلك جيدًا - ويبدو أنه كان يستمتع برفقته، تبادلا النظرات، فابتسم له العجوز، ابتسامة نقية أسعدته للغاية.

تفحص الفتاة؛ بدا عمرها ستة عشر عامًا تقريبًا، وربما أصغر، لم يبدُ وجهها المليء بمساحيق التجميل بشكل مبالغ فيه الذي كان يداعبه الزبون بيديه المجعدتين مسرورًا لوجودها هناك. في مكان آخر، لربما يُعتقَد أن هذا مشهد لجدٍّ يلعب مع حفيدته المراهقة. اتخذ مشهد الهواء المليء بالدخان وأضواء النيون وأصوات الثملين الذين يثرثرون بصوت عالٍ في بيت البغاء طابعًا جنسيًّا أثار "ميخائيل".

تمنى أن يحلَّ محلَّ العجوز ليداعب الفتاة التي تجلس في حِضنه، على الرغم من أن الفتاة كانت نحيفة للغاية - إلى الحد الذي أظهر عظام كتفيها النحيفتين - ومليئة بمساحيق التجميل. هو يفضل دائمًا النساء ذوات الوجه النظيف. كان "ميخائيل" مُثارًا حقًّا، حتى إنه أراد انتزاع الفتاة من ذراعي العجوز ذي المظهر الطيب، لكنه لم يستطع، لأنه أنفق كل نقوده على العاهرة البدينة.

أيقظت "ميخائيل" مرة أخرى صرخة الطفل الذي كان يرقد بين ذراعي الأم الغاضبة، متأثرًا بالزخم اللذيذ لتلك الأيام، وفي غضون لحظات قليلة، يتسارع نبضه كأنه على وشك الخروج من جسده. أغلق "ميخائيل" عينيه مرة أخرى، متلهفًا ليتذكر في شريط ذكرياته اللحظة التي ظهرت فيها "چيكاترينا"، ظهرت بعد ذلك الوقت بقليل، إذا لم يكن مخطئًا.

كانت الرياح باردة وشديدة في الأزقة، وكان لديه عمل نجارة معلق في منزل السيدة "بريجد". استعدَّ للذهاب إلى العمل في حين غادرت "چيكاترينا" - التي تقطن بالجوار - إلى المدرسة مرتديةً معطفًا من الفرو وحقيبة من القماش في يديها الممتلئتين. كانت الطفلة الوحيدة للأرمل "أكيم"، الذي لم يكن على وفاق مع والديْ "ميخائيل" بسبب خلاف بينهم حول قطعة أرض خلف المنزل.

لم يعطِ أهمية كبيرة قط للخلافات الموجودة بين الكبار، ولم يعِر ابنة الجيران، التي كانت تخرج في كل صباح وهي تدندن في طريقها إلى مدرسة القرية، أي اهتمام، لكنه لاحظ في ذلك الصباح أن "چيكاترينا" كانت ممتلئة الجسم وذات ذراعين عريضتين ووجه مستدير وبه نمش مثل والدتها الراحلة. كانت لديها ضفيرتان حمراوان سميكتان ممشطتان بعناية وعينان كبيرتان تتناسب مع وجهها، شديدتا الزُرْقة.

إنها مثالية! كم تبلغ من العمر؟ أربعة عشر عامًا؟ أم ثلاثة عشر؟ إنها أصغر من فتاة العجوز.

تتبَّع "چيكاترينا"، وعاود تتبعها كلما سنحت له الفرصة حتى حفظ تكراراتها اليومية؛ تذهب وتعود من المدرسة، وتقوم بزيارات منتظمة لمنزل العمة "لاريسا" في المدينة، وتقضي عطلات نهاية الأسبوع في الفناء الذي يقع غرب محطة القطار للعب مع صديقتيها التوأم.

كانت مراقبة "چيكاترينا" كافية مدة من الوقت. اختلق "ميخائيل" الأعذار لوالديه ليتتبع جارته، في الأجواء الباردة. كانت "چيكاترينا" جميلة؛ بشرتها ناعمة، وثدياها ينموان، ولديها جسد صغير ممتلئ ينبئ عن جسد بدين في مرحلة البلوغ. كل شيء في مكانه الصحيح.

نشأت الخطة من رغبته في لمسها والتهامها، لم تعد نظراته الخفية لها كافية، ولم يعد استنشاقه عطرَها الذي يثير رغباته كافيًا. كان على "ميخائيل" الانتظار مدة أطول قليلًا، حتى يسافر "أكيم" لتسوية بعض الأمور في العاصمة. بالكاد استطاع إخفاء فرحته عندما رآه يوصي ابنته بإطعام الحيوانات، لأنها ستبقى بمفردها في المنزل.

استحمَّ "ميخائيل" مدة أطول من المعتاد في ذلك اليوم رغم الطقس البارد، وارتدى قميصًا أسود معتقدًا أنه جميل جدًّا. طلَّ من النافذة في

انتظار "چيكاترينا" حتى تغادر منزلها وتتبعها بعناية إلى الفناء وشاهدها وهي تلعب مع الأخوات "ڤوندا" و"ڤيلما"، وهنَّ يتحدثن ويلعبن غير مكترثات بأي شيء آخر يحدث حولهنَّ. استراح "ميخائيل" خلف شجرة، متربصًا ومتخذًا حذره حتى لا تدركه "ڤاليا"، الأخت الكبرى للتوأم، التي كانت جالسة تجاهه. لم يكن الأمر صعبًا، فالفتاة كانت شاردةً تداعب حبيبها. بحلول الليل في القرية، أنهت "ڤاليا" لعب الفتيات وحان وقته.

اتجهن إلى الشارع الرئيسي معًا. وعند زاوية منزل "إيڤان" الحداد، ودَّعت "چيكاترينا" صديقاتها وغادرت في اتجاه المنزل، غير مكترثة بأي شيء، وأردافها الممتلئة تملأ سروالها السميك.

يتذكر "ميخائيل" بفخر إنجازه؛ مناداته إياها، واقترابه منها مختلقًا أي عذر، الجوال الذي وضعه على رأسها وصرختها المختنقة وتلك الليلة التي انقضت سريعًا عبر الأزقَّة ونظرة الفتاة المذعورة من وجودها مكمَّمة وعارية في سرداب مجهول.

أشبع "ميخائيل" رغبته منتهكًا جسد الفتاة الممتلئة الضعيفة؛ قبَّل ثدييها بشهوة وأنزل يديه المرتعشتين وانتهك أعضاءها الحميمة في لحظة نشوة. عندما توقفت "چيكاترينا" عن الصراخ منهكة، أزال "ميخائيل" كمامتها وأشبع رغبته. وقبل أن يطلق سراحها، همس إليها مهددًا:

- إذا أخبرتِ أحدًا، فسيموت والدكِ.

رُسِمَتْ على وجهه ابتسامة نابعة من نزعة الشر بداخله. تكررت تلك الأيام "المثالية" مرارًا وتكرارًا. كان يراقب "ميخائيل" "چيكاترينا" وهي تلعب في الفناء وكان ينتظر دائمًا اللحظة التي تنفصل فيها عن التوأم. فهو لم يعد مضطرًّا إلى الذهاب إلى المدينة بحثًا عن العاهرات، فكانت لديه طفلته الصغيرة في حضنه.

أطاعته "چيكاترينا" مستسلمةً، كما لو كانت ممارسة الجنس شيئًا مقدرًا لها. مع مرور الوقت، شعر "ميخائيل" في ملامسته إياها ببلوغ ثدييها، ونمو شفتيها، وزيادة وزنها، وفمها أكثر امتلاءً..

أدرك "ميخائيل" أنه بدأ يعرق بشكل مفرط ويحتاج إلى كوب آخر من الماء. فتذكر الماضي. ذلك الماضي لا يجعله يشعر بتحسن، ولكن في الوقت نفسه، لا مفرَّ منه.

حتى ذلك الحين، لم يتفهَّم "ميخائيل" قط لماذا لم تخبر "چيكاترينا" والدها عن أي شيء. لقد سلَّمت نفسها له بالتزامها نفسه في عمل واجباتها

المدرسية واستمرَّ الأمر أربع سنوات حتى توفي "أكيم". غادرت "چيكاترينا" اليتيمة، لتعيش في المدينة مع خالتها "لاريسا".

لقد كان ذلك أشبه بوصمة عار بالنسبة إليه، فلا عاهرات ولا فتيات أخريات أصبحن يُثِرْنَهُ، وإضافة إلى ذلك، عندما بلغ عامه الخامس والعشرين، أصبح يعاني السِّمنة المفرطة. كان يزن نحو مائة وثمانين كيلوجرامًا، ولم تعد النساء تراه جذَّابًا. خلال ذلك الفراغ الكئيب الذي اجتاح حياته، كرَّس "ميخائيل" نفسه للنجارة والأحلام الجميلة عندما كان يستمتع بـ"چيكاترينا".

كان الجو عليلًا في الليلة التي دُقَّ فيها جرس الباب جالبًا معه الماضي. كان قد أصبح كالراهب المنعزل في عمر الثلاثين. لم يكن معتادًا استقبال الزوارَ، ولم يخاطر بالخروج مدةً طويلةً، لأنه كان يتعب سريعًا.

لا يزال "ميخائيل" يشعر ببقايا أحاسيس بسيطة من رجفة جسده البدين عندما أدرك أن المرأة التي كانت تنتظره عند الباب هي الشابة الحلوة "چيكاترينا".

في ذلك الحين، كطفل حائر، لم يكن يعرف ماذا يجب أن يفعل أو يقول. في الواقع، اعتقد أنه كان سيواجه الصدمة نفسها، حتى لو مرَّ بتلك التجربة في ذلك الوقت. لم يكن يتوقع رؤية "چيكاترينا" مجددًا ورضخ إلى حقيقة

كونها واحدةً من هؤلاء الأشخاص الذين يمرون في حياتنا ويختفون بشكل غير متوقع مع مرور الوقت.

لكن لم يجرِ الأمر كذلك، لقد كانت هناك، أمامه، متزينة، دون أن تبتسم. وقالت مباشرة:

- أريد ممارسة الجنس معك يا "ميخائيل".

لم يعرف كيف يجب أن يتعامل معها وكان مصدومًا للغاية وقال:

- ماذا تفعلين في القرية؟

- لقد حصلت على المال من طريق ما.. وعدت لكي أعيش في المنزل المجاور.

- طريق ما؟ هل أصبحتِ عاهرة؟

ابتسمتْ ولم يحتج إلى مزيد من التوضيح، فكر "ميخائيل" في مسؤوليته لاتباع "چيكاترينا" ذلك الطريق الخاطئ وشعر بالفخر.

- ماذا تريدين مني؟

كررت القول دون إعطائه فرصة لمزيد من الأحاديث:

- أريد ممارسة الجنس معك يا "ميخائيل". لا تحتاج إلى دفع المال.

ابتسم "ميخائيل" عندما أدرك أنه كان على حق، لقد أصبحت بدينة حقًّا، لم تكن بدينة مترهلة، لقد كانت منحنياتها مثالية على طريقته المفضلة. انزعج من زينتها، فكان نمش وجهها مخفيًّا تحت طبقات من المسحوق الأبيض، لكن هذا لا يهم.

- إذن تفضلي بالدخول.

دعاها ورُسِمَتْ ابتسامة غامضة على وجهه. دون انتظار أي مبادرة منه، أنزلت "چيكاترينا" لباسها، وأمسكت بكتفي الرجل العريضتين وتبادلا القبلات الحارة، الجلد بالجلد، اللعاب باللعاب.

- افتح فمك! هيا، افتحه!

همست في أذنه، ولكمته بعض الصفعات الجريئة.

وبرغبة جامحة، لعقت "چيكاترينا" وجهه وبصقت في فمه بطريقة مثيرة للاشمئزاز بقدر ما كانت ممتعة، كان الاشمئزاز والمتعة يسيران جنبًا إلى جنب.

قضمت "چيكاترينا" شفتي "ميخائيل" وفتحت جروحًا صغيرة هنا وهناك، فقد علَّمتها السنوات التي قضتها في المدينة أن تمنح زبائنها ليلة مليئة بالمتعة. لكن "ميخائيل" كان يعلم أنه لم يكن مجرد زبون، فكانت تزداد القبلات الطويلة والبصق ولعق جسده وهو بدأ فعلًا تمزيق ملابسه، حتى ابتعدت "چيكاترينا" فجأة ولبست ملابسها بسرعة وغادرت دون التفوه بأي كلمة.

اعتقد "ميخائيل" أن هذا كان نوعًا من الاستفزاز من "چيكاترينا"؛ انتقام بريء لكل ما فعله بها.. منذ ذلك اليوم، لم تبادله أي حديث أو لم تره مرة أخرى. لقد أصبحت "چيكاترينا" بالغة فعلًا ولم يعد بإمكان "ميخائيل" السيطرة عليها بتهديداته أو ممارسته الجنس معها بالإجبار. كما امتنع أيضًا عن فكرة دفع ثمن خِدْماتها، ورضي بعزلته. فهي المرأة الوحيدة التي مارس الجنس معها دون دفع أي نقود.

لكن طرأت عليه بعض التغييرات.. بقع في جميع أنحاء جسده، فقدان حواسه، ذراعاه المنكمشتان، تشوه مصحوب بآلام في الأصابع، تجعد الجلد بسرعة، كما لو كانت الديدان تنهش في لحمه، وتزايدت هلاوسه بشكل متكرر.

قال الطبيب وهو يفحص التحاليل التي أجراها "ميخائيل" منذ أيام:

- الجُذَام؛ أنت تعاني الجُذَام يا سيدي.

- ماذا؟

فحتى مع وجود الطبيب أمامه، لم يستطع سماعه بسبب صراخ الطفل اللعين الذي لا يتوقف.

- الجذام هو مرض ليس له علاج يا سيد "ميخائيل" ومُعدٍ في مرحلته الأولى.

- ومُعدٍ؟

- تُنقَل العدوى عن طريق جزيئات اللعاب، على الأرجح في العلاقة الحميمية.

- أنا لم...

كان على وشك القول إنه لم يُقبِّل أي امرأة.. منذ لقائه بـ"چيكاترينا".

- من سوء الحظ، إنه مرض سريع الانتشار في هذه المنطقة يا سيد "ميخائيل".

توجه "ميخائيل" إلى الطبيب وقال:

- ما مضاعفات هذا الشيء؟

- هذا يتوقف على مرحلته يا سيد "ميخائيل". من سوء الحظ أنك شُخِّصْتَ في مرحلة متأخرة ولا يمكننا فعل الكثير.

- ما المضاعفات يا دكتور؟

قال الطبيب:

- مضاعفات في الجهاز العصبي وعجز وربما موت مبكر. نحتاج إلى معرفة من قد يكون نقل إليك العدوى حتى نتجنب مصدرًا آخر للعدوى. فقد لا يكون الشخص على علم بأنه حامل للمرض.

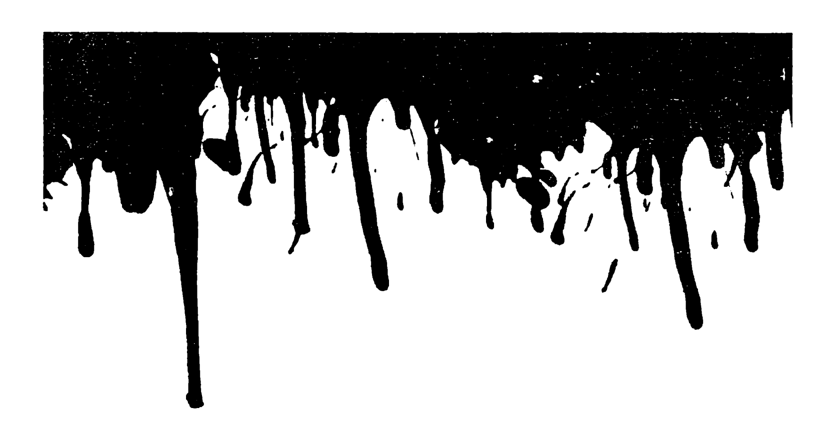
- أفهم ذلك.

- هل تعلم من قد يكون أصابك بالعدوى؟

ابتسم "ميخائيل" بتوتر وقال:

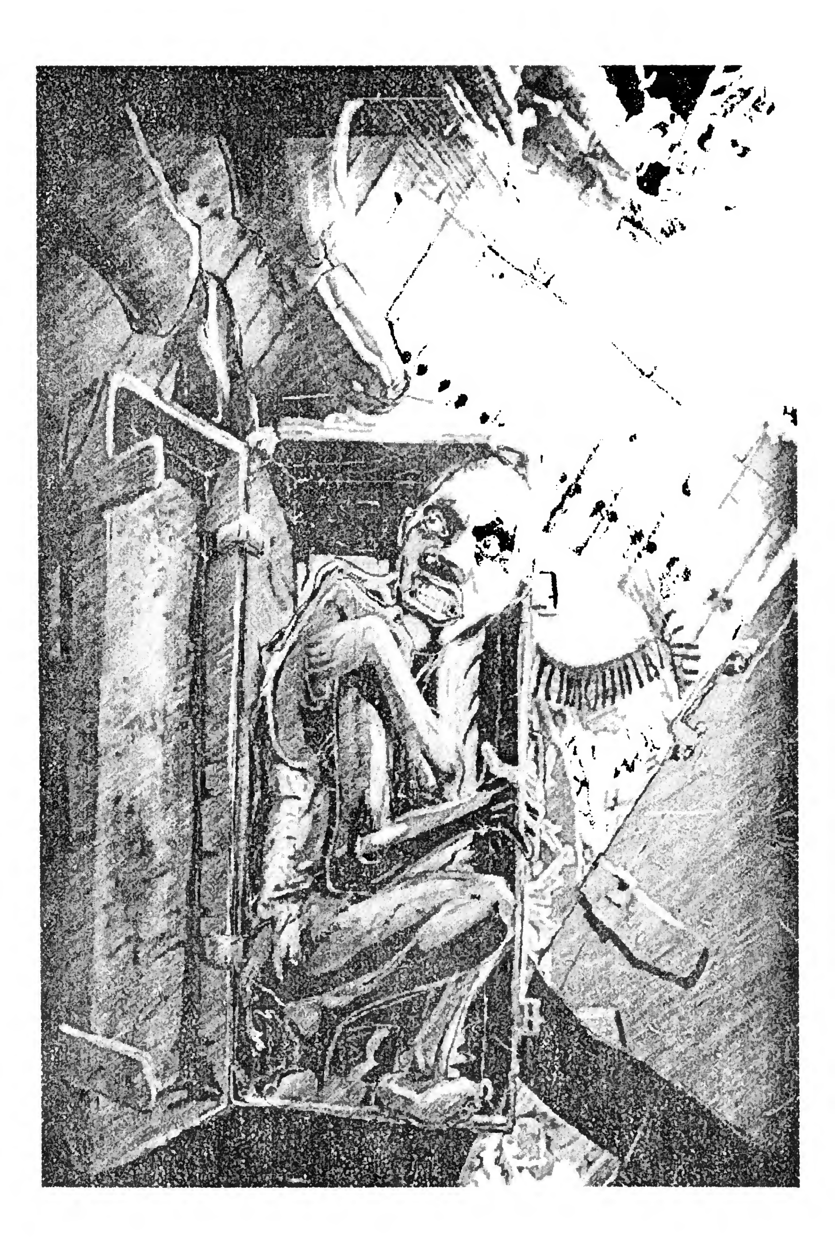
- لا أعلم يا دكتور، ليستْ لديَّ أدنى فكرة عن ذلك.





الكسل

"بيلفيجور"



القصة الحقيقية لـ"إيڤان" الحداد

التحف الأغطيةَ الوَبَرِيَّةَ وفرك قدميه لتدفئتهما في محاولة باءت بالفشل، فالبرد يؤلم عظامه. تحترق جذوع الأشجار في المدفأة، لكنها أصبحت عديمة الفائدة أمام صقيع القرية.

في غضون دقائق قليلة، تعيَّن على "إيڤان" النهوض من السرير وارتداء معطفين أو ثلاثة لإحضار فأسه من الطابق السفلي، وقطْع المزيد من الأشجار. بدأ يفكر أنه سيهدر طاقته كلها في هذه العملية وشعر بارتعاش ذقنه بشكل لا إرادي وأطلق ضحكات متوترة، يمكنه فعلًا رؤية النهاية؛ هناك، مستلقيًا على الفراش الناعم، ومدفَّئًا بثلاث طبقات من الصوف. إنه يدرك أنه إذا لم يفعل شيئًا، سيأتي الموت قريبًا لا محالة، فالتفكير في الموت لا يكفي لينهض، فهو يفضل البقاء مكانه والمقاومة لأطول وقت ممكن.

لم يكن البرد عدوه الوحيد، بل الجوع أيضًا. فمنذ استئناف الحرب الأهلية، أصبحت القرية في عزلة ومنسية بين الوديان الجبلية دون أي إمدادات وفقد الاقتصاد المحلي قوته، الذي كان يعرف بقوته وجودة إنتاجه الحديد والصلب. شاهد "إيڤان" من قرب الخراب يجتاح المنطقة وحدث ذلك بسرعة كبيرة؛ غزو الثوارِ العاصمةَ، وحصار البلدات المجاورة، وحدوث العواصف الثلجية التي أغلقت الطرق وقطعت تواصل القرية مع العاصمة.

في البداية، سيطر اليأس والخوف على أهل القرية. أما الآن، بعد مرور ما يزيد على تسعة شهور قمرية، عمَّ الصمت واستسلموا للقدر. مات الكثير منهم في ذلك الحين، أما الناجون باتوا ينتظرون، سجناء في منازلهم، يعيشون صراعًا يوميًّا، متشبثين بأمل البقاء أحياءً حتى ينتهي ذلك الكابوس.

في الأسبوع السابق، شاهد "ڤوندا" تخرج من المنزل المجاور، مرتدية حذاءً، وتحمل حقيبة من القماش على ظهرها. تعرَّفها بسهولة بفضل الشامة الحمراء الموجودة على وجهها، والتي يبدو أنها تكبر كل عام، ولم تعد تتحمل عناء إخفائها بالتزين بعد الآن. أصبحت امرأة بالغة. عاشت "ڤوندا" مع أختها الكبرى "ڤاليا"، فلم يعتقد أن "ڤوندا" ستمضي قدمًا في حياتها، إنه أمر مثير للاهتمام وعجيب حقًّا. فتح الباب للتحدث معها وقالت له:

- إني راحلة. لا أريد الموت وأنا منسية في هذه القرية اللعينة. لا تريد "ڤاليا" مرافقتي، سأذهب بمفردي للعيش في الأمريكيتين وتأليف الكتب.

بعد مدة وجيزة، حان دور "أناطولي". أطلّ "إيڤان" من النافذة عندما غادر "أناطولي" المنزل، وقبَّل زوجته وأطفاله الثلاثة وانطلق سيرًا على الأقدام إلى العاصمة. لقد عرف لماذا كان يفعل ذلك؛ إذا بقي في المنزل في انتظار تغيُّر الحظِّ، فسوف يفقد عائلته بأكملها إما بسبب الجوع وإما البرد. كان من الضروري التحلي بالشجاعة ومواجهة الخطر والخروج بحثًا عن الطعام.

استرجع الذكريات وفكر "إيڤان" في فعل الشيء نفسه، فهو بالكاد يتذكَّر آخر مرة أكل فيها خضراوات أو مضغ لحمًا. يا ترى إلى متى ستتحمل معدته تناول قطعة بسكويت واحدة فقط في اليوم؟

عدل عن فكرة الذهاب إلى المدينة بالسرعة نفسها التي كانت تراوده. إن احتمال قضاء أيام سيرًا بين الثلوج، والنوم على أرض الغابة الجليدية، يجعله يشعر بالغثيان. إذا كان سيموت، فمن الأفضل له الموت في فراشه، متدفئًا بلهيب الجمرات في مدفأته.

فضَّل "إيڤان" تجنب إهدار طاقته، وفضَّل البقاء هناك آمنًا. وإذا تفاقم الوضع، لا تزال لديه المرأتان السوداوان في الطابق السفلي، فإذا أراد تناول

الطعام، سيتعين عليهما مساعدته. مرَّ وقت طويل منذ أن أكلتا آخر حبة ذرة، يا لهما من مسكينتين، إنهما جائعتان طبعًا.

ألقى نظرة سريعة على طبق الكعك على الطاولة، تبقت اثنتان فقط وكان يسمع قرقرة معدته. رفع قدميه من السرير، وشعر بتسارع نبضهما كلما لامستا الأرض الباردة. زحف إلى الطاولة والتقط كعكةً ومرر لسانه الجاف على الطعام محاولًا تذوقها. ومن ثَمَّ، وهو يتضوَّر جوعًا، وضعها في فمه دفعة واحدة، متذكرًا أن يمضغ ببطء، وتجنب بلعها في الحال حتى تدوم الوجبة مدةً أطول.

تساءل "إيڤان" الحداد عما سيفكر فيه أهل القرية إذا رأوه في هذا الموقف المثير للشفقة. كانوا سيتساءلون لماذا رجل يتميز بتلك الفحولة لا يواجه البرد لإنقاذ حياته.

كعادته، كان يكذب، الأكاذيب التي تخفَّت في ثوب الحقيقة حتى آمن بها هو ذاته. فمنذ سن مبكرة، أدرك "إيڤان" الصغير ما كان متوقعًا منه، إنه وُلِدَ بهيكل عريض، وبنية بدنية قوية، كانت لديه سمات الرجال الذين يتمتعون بقوة غير عادية وصحة وفيرة. فتوقعوا منه أن يكون بطلًا، قائدًا مثل والده، نموذجًا للنشاط والعنفوان في تلك القرية التي نسيها الزمن.

لم يرقَ قط إلى أي من توقعاتهم، مطلقًا. لقد جاء إلى العالم حاملًا بداخله طاقة سلبية، هكذا سماها؛ طاقة سلبية، شيء مجرَّد كان يُثقِل أفكاره، تعايش معه دائمًا. دعاه إحساس باللامبالاة إلى البقاء في السرير، ورَفَضَ تلبية احتياجات جسده التي تستغرق وقتًا طويلًا وكذلك المشاوير المرهقة.

في السنوات الأولى، كان عمله في ورشة والده بمنزلة استشهاد، كالذهاب إلى المدرسة وإجباره على غسل الأطباق كل ليلة بعد العشاء. ومن ناحية أخرى، اعتاد "إيڤان" الامتيازات التي ميَّزه بها أهل القرية. إن مظهره شديد الفحولة يعطيه امتيازات رفض الاستغناء عنها. لذلك كان يتصنَّع أنه كان يحب ما يفعله، أُجبِر على التصرف هكذا أمام الآخرين، وذلك مدةً من الوقت، حتى أمام والده. وأنه كان فخورًا بكونه أفضل حداد في المنطقة، محافظًا على تقاليد خمسة أجيال. بوفاة والده، وجد "إيڤان" طريقة للخروج لإسعاد نفسه ولو مرةً واحدة والتخلص من القوة السلبية التي استهلكته دائمًا، مقابل بضعة نقود، اشترى فتاتين سوداوين. لقد أكَّد له العجوز الذي باع الأَمَتَيْن له أنهما تتمتعان بصحة جيدة، وأنهما لائقتان للعمل الشاق. ولم يُكذِّب خبرًا. فبعد سنوات عدَّة، ما زالتا حيتين، محبوستين في القبو نفسه، تقاومان البرد والجوع في حين يستسلم الكثيرون.

في السابق، كان من الصعب تعليم الفتاتين السوداوين ذوات الأذرع الضعيفة كيفية التعامل مع الآلات الثقيلة اللازمة لصهر الحديد والصلب.

وبمرور الوقت، اكتسبت الاثنتان مهارة استعمال تلك الأدوات، وبفضل المرأتين السوداوين، اعتبره الجميع الحداد الأكثر مهارة والأكثر إنتاجًا في المقاطعة بأكملها، إذ حقَّق معجزات لمهارته في ورشة العمل الخلفية التي احتفظ بها كواجهة.

منهمكًا في تلك الأفكار، لم يلاحظ "إيڤان" حتى أنه تناول الكعكة الأخرى التي كانت في الطبق. دفعت غريزة الجوع لديه أصابعه الطويلة إلى طلب المزيد من الطعام، دون أن يدرك. وجد الطبق فارغًا. ليس في تلك الليلة ما يأكله، وملأت الرغبة في مضغ اللحم اللذيذ معدته وسال لعابه مرة أخرى.

قلَّب الطبق وابتلع الفتات، ولعق تلك التي سقطت على الأرض المترَّبة، ثم عاد مرهقًا إلى الفراش. قبل الذهاب إلى الفراش، فكَّر أن ينزل إلى الطابق السفلي للاطمئنان على الفتاتين السوداوين، لكنه رأى أنه من الأفضل ألا يهدر طاقته في هذا الهراء. على أي حال إذا لم تكونا حيتين، فلا يمكنه فعل أي شيء.

اشتاق إلى الوقت الذي اشترى فيه الفتاتين السوداوين، كان صباحًا ربيعيًّا دافئًا إذ يحمل العجوز مبتسمًا حقيبتين طويلتين، فتح الحقائب أمام المدفأة وكشف عن جثتين هزيلتين لديهما أعين مرتعبة، قد تبلغان من العمر

سبع سنوات أو ثماني، متشابهتان في الألم والبؤس. أخذهما "إيڤان" إلى الطابق السفلي حيث ستعيشان، محبوستين في قفص مُحكم بناه بنفسه.

على مدار هذه السنوات، لم يتحدث معهما أكثر من بضع كلمات، كانتا تتحدثان بلهجة هامسة شبه صامتة وشيطانية. تجنب "إيڤان" أيضًا معرفة من أين أتتا أو ما تفكران فيه. لطالما كان قلبه رقيقًا ولم يستطع السماح لنفسه بالتعلق بهما. لقد عامل الفتاتين السوداوين كالآلات، الآلات التي وفَّرت له جهد ساعات العمل في الورشة.

لتسهيل التحكم بهما، بسكين حادة، نقش وشمًا تعريفيًّا على ذراع كل منهما: رقم 01 ورقم 02. عندها فقط بدأ يميز الاثنتين. كانت رقم 01 أكثر تعاونًا وذكاءً، وعلى استعداد للعمل أكثر من ثماني عشرة ساعة متواصلة دون حتى أن تفقد وعيها، أما رقم 02 كانت متمردةً وكسولةً. وظل يعاقبها باستمرار حتى تُكمل الحد الأدنى من الاثنتي عشرة ساعة في العمل في سبك الحديد والصلب.

سار كل شيء في هدوء تام حتى يوم وصول الزنجي الأعور إلى القرية. كان لدى "إيڤان" ذكريات حيَّة عن ذلك الصباح الشتوي. كان ينتظر في المحطةِ القطارَ المغادرَ إلى المدينة، إلى أن ظهر الزنجي في الغابة. كان عاريَ

الصدر، لديه عين واحدة فقط، وفمه مليئًا بالدماء. هل كان للأجنبي أي علاقة بالفتاتين السوداوين؟ هل كانوا أقارب؟ سيطر عليه الخوف.

وبتشجيع من أهل القرية، ساعد "إيڤان" في الوقوع بالزنجي، فكمَّموا فمه واقتادوه إلى الميدان في القرية. جلب "إيڤان" فأسه، جاهزًا لقطع رقبة ذلك الوحش. انتهز الفرصة ليتفقَّد الفتاتين رقم 01 و02، كانتا لديهما البشرة الداكنة نفسها للزنجي الأعور، عاد أكثر قوةً وشجاعةً. كان قتله أفضل طريقة لقطع الشك باليقين، ولتفادي أي ادعاءات بعلاقة الفتاتين السوداوين اللتين تؤمنان له الراحة اليومية بهذا الوحش الزنجي.

غطى رأس الزنجي بجوالِ البطاطس، ورفع فأسه، جاهزًا لإعدامه. لقد أحب تلك اللحظة، لقد كان حقًا رجلًا مدافعًا عن مصالح القرية قبل كل شيء. كاد الفأس ينزل فعلًا، حتى قاطعته السيدة "هيلجا"، زوجة العقيد "ديميتري". وصلت المرأة عاقدة العزم، لديها خصال الهوانم، مدعية أن قطع رأس الزنجي ضرب من العبث. حاول "إيڤان" إقناعها، لكنه لم ينجح. فالسَّيدة "هيلجا" كانت امرأة ذات سلطة، فكانت زوجة المسؤول الوحيد في القرية. أصرَّت على إيواء الزنجي في منزلها دون رجعة في قرارها، فلم يتبقَّ له أي خيار.

مع الزنجي الأعور الذي يعيش في منزل السيدة "هيلجا"، كان على "إيڤان" أن يتحقق من ماهية ذلك الرجل الذي يشبه الفتاتين السوداوين للغاية، وماذا كان مقصده هناك، في قرية منسية بين الجبال. لم تستغرق "بريجد" وقتًا طويلًا حتى ثرثرت له أن الزنجي كان يُدعَى "موبوتو" وجاء من إفريقيا. لكن لم يسمع "إيڤان" شيئًا مثيرًا للاهتمام حقًا إلا في ظهر أحد أيام الربيع، عندما سمع، وهو يمر في الشارع الرئيسي، السيدة "هيلجا" وهي تقول:

- لقد فقد زوجته في الحرب، وخطف رجل أجنبي ابنتيه وهو يبحث عنهما، فبطريقة ما قادته آثار الخاطف إلى القرية. إنه ليس وحشًا، لكنه أب يريد إنقاذ حياة ابنتيه.

لم يكن للشك أدنى مجال أن هذا الوحش كان والد الفتاتين اللتين كانتا ذراعه اليمنى في العمل، فإعادتهما إليه كانت احتمالًا غير وارد، لذلك قرر تتبع الزنجي الأعور من كثب، والتخلص منه في أول فرصة. كان سيقطع رقبته في الوقت المناسب. ولكن لم تسنح له الفرصة قط.

يئس عندما عرف أن الزنجي قد هرب من منزل السيدة "هيلجا"، وارتكب فعلته الهمجية بخطفه "إيوري". في اليوم نفسه، ذهب "إيڤان" إلى العاصمة

واشترى بندقيتين. فالزنجي كان طليقًا وهذا أمر خطير، عاجلًا أم آجلًا، سيكتشف أن ابنتيه كانتا هناك في القرية وعلى "إيڤان" أن يكون مستعدًّا.

مضت شهور طويلة من الانتظار، تتخللها ليالٍ بلا نوم وكوابيس خيالية. في صباح صامت، استيقظ "إيڤان" على صوت غير مألوف في الجزء الخلفي من المنزل ومد يده نحو المسدس الموجود في درج سريره وتظاهر بالنوم وهو يشاهد ظلًّا يقترب بصمت. كان الدخيل يحمل في يديه سكينًا ريفية وكان مستعدًّا للهجوم.

أمره "إيڤان" وهو يصوب مسدسه نحوه:

- قف أيها الوحش!

تراجع "موبوتو".

- اترك السكين أيها الوحش القذر، هيا اتركها.

ترك "موبوتو" السكين في حركة بطيئة.

سأله "إيڤان":

- أين هو الصغير "إيوري"؟ ماذا فعلت بطفل السيدة "هيلجا"؟

أراد كسب مزيد من الوقت لمصلحته، لقد انتظر منذ شهور زيارة الزنجي، وعندما كان أمامه، أعزل، لم يعرف كيف يجب أن يتصرف.

- "موبوتو" أكل الطفل الجميل.

حاول "إيڤان" تمالك أعصابه. لم يرِد إطلاق النار، لأنه كان سيوقظ القرية وسيضطر إلى إعطائهم تفسيرات.

- "موبوتو" يريد "البنت"، بنت "موبوتو" هنا.

- لا أعرف عما تتحدث.

- "البنت" هنا.

ابتسم "إيڤان". قال له وهو يشاور إلى باب خفي:

- إنهما في السرداب. ابنتاك في السرداب.

عندما انحنى الزنجي لرفع غطاء السرداب، ضربه "إيڤان" على رأسه وركله في بطنه، فانهارت كتلة جسده العضلية الضخمة ونزف دمًا أحمر

اللون، كأي إنسان. وبالسكين التي كان يحملها الزنجي، أنهى "إيڤان" المهمة، بطعنة حادة في رقبته.

بعد دفنه في الجزء الخلفي من المنزل، حاول "إيڤان" النوم، ولكن بات ذلك مستحيلًا. قضى الليلة في الحانة محتسيًا الفودكا حتى يُخرِجَ صورة الرجل الأسود مقطوع الرأس من عقله. في وقت الفجر نفسه، أخبر أصدقاءه الثملين بالأحاسيس التي كانت تراوده عندما وصل الزنجي إلى القرية قائلًا:

- كانت بشرته سوداء كما لو أنها احترقت في نار الجحيم قرونًا، وأسنانه مُعَوجَّة وملطخة بالدماء البشرية، ويداه عريضتين وخشنتين، فعندما لمستهما، شعرت أنهما مختلفتان أيضًا. لم يكن إنسانًا، لا يمكن أن يكون كذلك، كان ذلك واضحًا في لون جلده الأسود وكان ذا عين واحدة فقط، أما الأخرى فكانت حفرةً، تجويف من الجلد المترهِّل الذي لا يمكن لأحد أن يطيل النظر إليه. ما زلت أفكر في الفظائع التي ارتكبها الرجل حتى يقتلعوا عينه، ولكن هذا لا يهم الآن. لو كنتُ أعرف، لقطعتُ رأس ذلك الشيطان هناك في الساحة، أمام الأطفال وكبار السن.

كان على يقين أنه فعل الشيء الصحيح. إن قتل الزنجي الذي التهم "إيوري" الصغير هو ما كان سيفعله الجميع في مكانه. احتفظ "إيڤان" بالسكين القروية التي كان ينوي الزنجي قتله بها، كتذكار.

أجبرته قرقرة معدته على التخلي عن أفكاره، إذ أدرك أن الكعكتين لن تكفياه حتى يصمد لليوم التالي. إنه متعب وجائع ويشعر بالبرد. تململ تحت طبقات الصوف محاولًا التفكير في طريقة لتخطي تلك الأزمة. لم يعد لديه الكثير من الخيارات. يمكنه أن يطرق أبواب المنازل المجاورة، لكنه يشكُّ في أن يقدم أي شخص الطعام طوعًا. يمكنه أيضًا طلب المساعدة من الفتاتين السوداوين في صيد الحيوانات، لكنه لا يريد إطلاق سراحهما من القفص.

فجأة، خطرتْ له فكرة ساخرةً في البداية ومقرفة جدًّا. لكن بلا شك، ظلَّت الخيار الوحيد الجيد المتبقي لديه.

التقط السكين الريفية ونزل على السلالم للطابق السفلي حيث تنام الزنجيتان ويرتجف جسداهما النحيلين تحت الخِرق التي أعطاها إياهما لارتدائها. أيقظتهما طقطقة السكين لاحتكاكها بقضبان القفص. تفتح نمرة 02 عينيها المليئتين بالنعاس وتحاول أن تفهم ما يحدث، وتستيقظ نمرة 01 خائفةً وتطلق صرخة وحشية. ألقى "إيڤان" السكين في القفص.

قال "إيڤان":

- أحتاج إلى التضحية بواحدة منكما، أن تقطع قطعة من لحمها، من الأفضل أن تكون من الأرداف، أنا في حاجة إلى الطعام.

تنظر إليه الزنجيتان دون فَهم وكرَّر لهما القول. أخذت نمرة 01 السكين مترددة ونظرت إليه مرة أخرى، عيناها عميقتان ومؤلمتان ومظلمتان للغاية، تتمتم بعبارات غير مفهومة كما لو أنها تستحضر اللعنات. شعر "إيڤان" بالارتياح لأن الزنجيتين لم تتعرفا السكين الريفية التي تخص والدهما الأعور. انطلقت نمرة 01 نحو نمرة 02، وسحبتها من شعرها ورفعت السكين وطعنت أختها نمرة 02 في صدرها عدة مرات، حتى توقفت صرخاتها المروعة. ابتعدت نمرة 01، وركعت بهدوء في الزاوية المقابلة للقفص ووجهها ملطخ بالدماء والدموع.

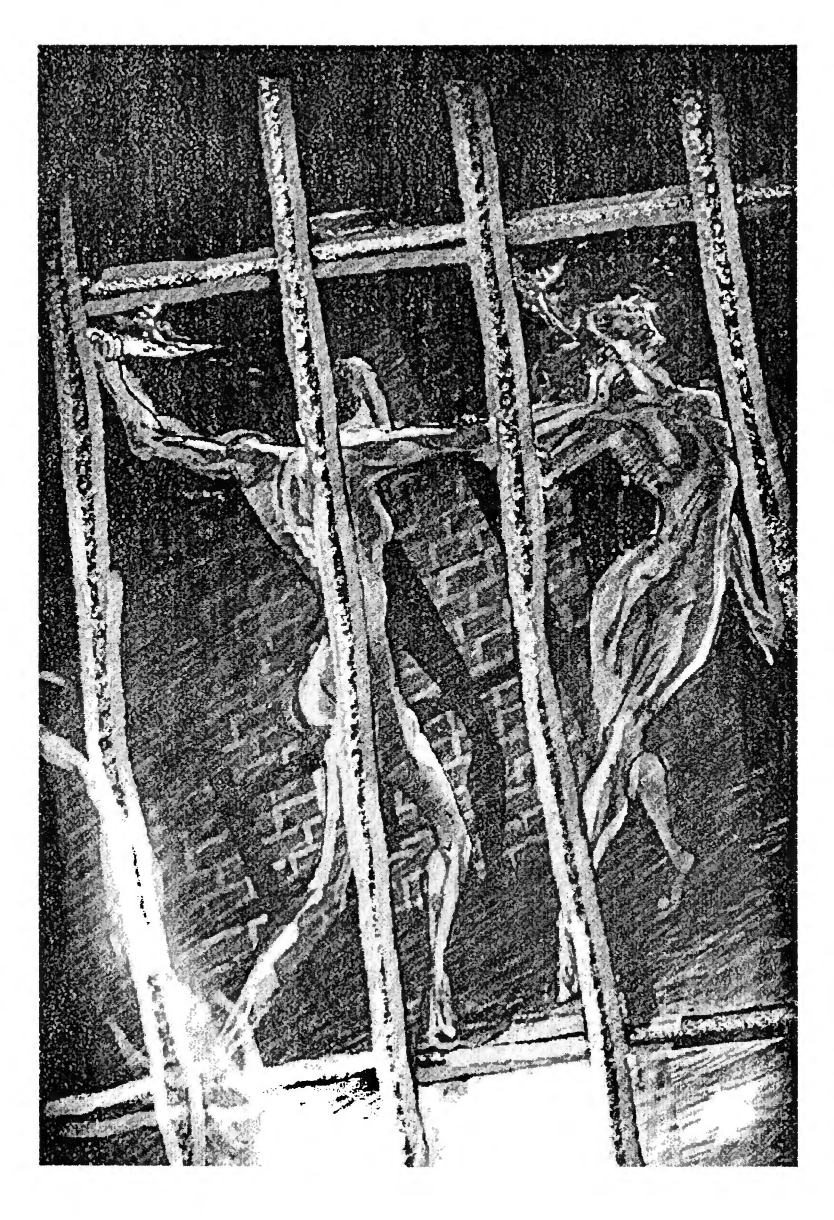
أثارت "إيڤان" الدهشةُ، واقترب من جسد نمرة 02 الملطخ بالدماء، وسحب الجثة بصعوبة إلى أعلى السلم. أخذ القدر إلى النار والتفت إلى الزنجية الميتة ثم مزَّق قطعة لحم من فخذها وألقى بها في المقلاة فوق اللهب. ترك اللحم يُطهى بضع دقائق قبل التقديم. ابتسم راضيًا من المضغة الأولى، كان طعمها لذيذًا بنكهة اللحم الحقيقية. واعتقد أنه كان يحلم.

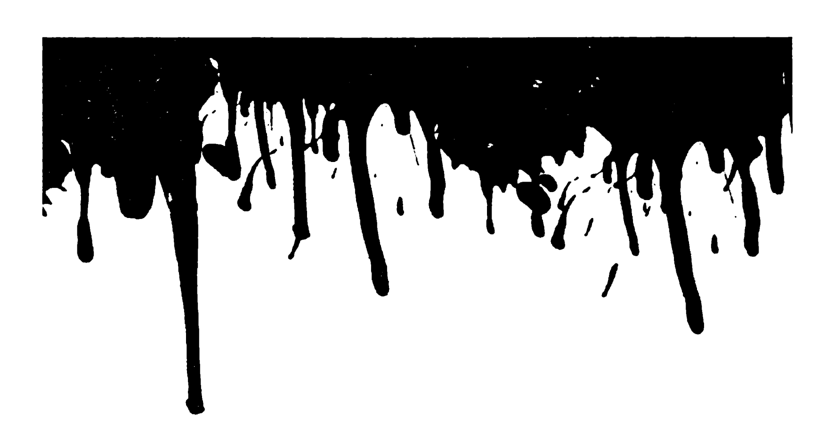
في منتصف الوجبة، تفاجأ بقرعٍ على الباب، فهو اعتاد العزلة والصمت في تلك الأوقات. أخفى جسد الزنجية خلف الأريكة وترك شريحة لحم غير مكتملة في الطبق على الطاولة. مشى إلى النافذة، وفتح الستائر.

إنها "فيليكا"، زوجة "أناطولي". ارتدى معطفًا ثقيلًا ويداه مخبأتان في جيبيه. تراه وهو يراقبها وتومئ برأسها. كان وجهه متوردًا وسعيدًا، ويبدو كأنه اكتسب وزنًا في أسابيع البرد والجوع.

ابتهج "إيڤان". فلا شك أن "أناطولي" عاد موفقًا من رحلته وأحضر طعامًا يكفي الجميع وأن "فيليكا" جاءت لتدعوه لتناول العشاء في منزلها بعد مدة طويلة من البؤس. كان يعرف أن لذلك الكابوس نهاية. وشعر لثانية بالاشمئزاز لأنه أكل لحمًا بشريًا، ما الذي دفعه الجوع إلى فعله؟! لم يُضِع الوقت، بحث عن المفتاح في الدرج ليفتح باب المنزل لـ"فيليكا".

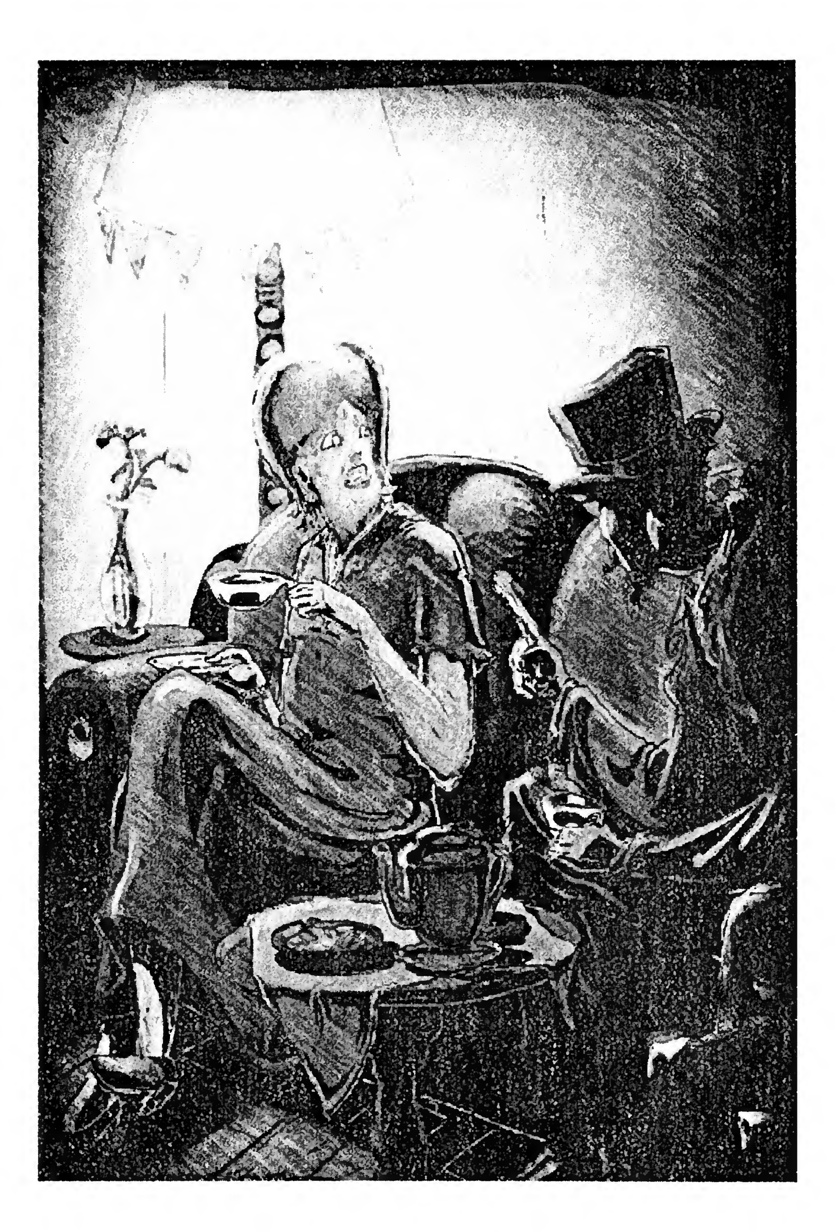






الطـمـع

"مامُّون"



الحصالة التي على شكل خنزير للسيدة "برانكا"

قبل شهرين من المتوقع، وُلِدَتْ الصغيرة "لاتاشا"، بوزنٍ ضئيلٍ للغاية، ورأس ملطخ بالدماء بحجم التفاحة. لم تنجُ والدتها السَّيدة "أنيا" من الولادة، إذ أحزن خبر وفاتها أهل القرية كلهم. قبل مدة قصيرة، تُوفِّيَ والدها "إيجور" عندما تطوَّع في الحرب التي اندلعت في العاصمة. فوُلِدَتْ الطفلة المحبوبة ذات الخدين الورديين يتيمةً. كان يومًا حزينًا.

استقبلت السَّيدة "برانكا"، والدة "أنيا" وجدة "لاتاشا"، الخبرَ بصدمة كبيرة وأخذت تصلي بلا هوادة، باحثةً عن تفسيرات للمأساة التي حلَّت بالعائلة، في الوقت الذي بدأ فيه أهل القرية يرددون الإشاعات بشكل متزايد في الآونة الأخيرة عن وجود لعنة حلَّت على قريتهم. فهم عاشوا حقبة مظلمة، مليئة بمصائب عائلية، وانتشار أعمال العنف، وموت كثير من الرجال في

الحرب. منذ مدة طويلة، خطف شخص غريب طفلَ السيدة "هيلجا"، والآن وُلِدَتْ "لاتاشا" يتيمة، إذ لقيت الأم حتفَها بمجرد أن خرج الطفل من رحمها.

اعتنت السَّيدة "برانكا" بحفيدتها بكل حب، فهذه الطفلة ذات العينين الناصعتين هي عائلتها الوحيدة. ومع تقدمها في السن، كرَّست السيدة "برانكا" أغلب وقتها لحياكة الملابس التي تبيعها لمتاجر العاصمة. كانت في حاجة إلى كسب المال لإطعام الطفلة. تلقَّت المساعدات من بعض الجيران، لكنَّ كرامتها منعتها من قبول مساعدات كبيرة. حتى إنها ذات صباح، كانت على وشك إساءة التصرف حينما رفضت عرضًا من جارها البدين "ميخائيل".

قالت قبل أن تغلق الباب في وجه الرجل:

- لا أحتاج إلى أن يدفعوا لي ثمن طعام حفيدتي، إذا لم أستطع دفعه بنفسي، فلتعِش من دونه.

كبرت "لاتاشا" وهي تتعلم أسرار الحياكة من جدتها. نظرًا إلى أن الاثنتين تعيشان في منزل به غرف قليلة، تعيَّن على الفتاة تكريس وقتها لإنهاء الأعمال المنزلية في وقت مبكر. فتنوعت واجباتها بين غسل الأطباق وإزالة تراكمات الثلوج في الفناء الخلفي. وعندما أصبحتْ في سن الخامسة، كانت تبقى بمفردها في المنزل بعض الأحيان، عندما كانت تسافر جدتها إلى

المدينة لتوصيل شحنات الملابس التي خيطتها، أو لزيارة المحاسب الذي يدير مدخراتها دون أن تدفع له أي شيء.

منذ صغرها، تعلَّمت "لاتاشا" أيضًا قيمة المال، فدائمًا ما حرصت السَّيدة "برانكا" على توضيح قيمة الأشياء لها لكي تستوعب حفيدتها أهمية ادخار أموالها الخاصة، وقالت:

- يوجد من لا يأبه لأهمية المال، إنهم مغفلون. فكل ما ترتدينه، نقود؛ ما تأكلينه، نقود؛ مكان نومكِ، نقود؛ كل شيء في الحياة هو مال، كل شيء. كما يقول المحاسب: "إن الفقراء يعانون الفقرَ لأنهم أرادوا ذلك".

لم تهتم "لاتاشا" كثيرًا لخطب جدتها. فقد سئمت أيضًا من تكرار اقتباس العجوز عباراتِ محاسبها.

ذات خريف، قابلت "لاتاشا" أخيرًا الرجل الذي تتحدث عنه جدتها كثيرًا. ظهر المحاسب في القرية بالضبط في التاريخ الذي تتم فيه "لاتاشا" عامها العاشر. إنه رجل هَرِمٌ، عمره يقرب من قرن من الزمان، عالق في بدلة مجعَّدة، ويحمل حقيبةً رثَّة. قال الرجل عندما فتحت له "لاتاشا" الباب:

- يا إلهي، يا لها من فتاة جميلة! بالتأكيد إنكِ حفيدة عزيزتي "برانكا"، إن جدتكِ تتحدث كثيرًا عنكِ! تقول إنك ذكية ومجتهدة في دراستكِ، ليس كبقية الأطفال الكسالى في عمرك.

تُدهَش "لاتاشا" من مظهر الرجل وهو بدوره يعرِّف نفسه:

- أنا محاسب جدتكِ، أهي موجودة؟

اقتربت السيدة "برانكا" من الباب ببطء، متكئة على عصا من خشب الأرز وابتسمت للزائر وأمرت "لاتاشا" بتحضير الشاي بالأعشاب.

قال المحاسب لاحقًا وهو يحتسي المشروب الساخن:

- إن الشاي لذيذ حقًّا يا عزيزتي "برانكا". إنه مشروب لذيذ وساخن يساعد في حمايتنا من برد هذه المنطقة، وإضافة إلى ذلك رخيص، فهو أوراق جافة وماء ساخن. هل يوجد شيء أفضل من ذلك؟

توافق السيدة "برانكا" وتحفظ في ذهنها كل نصيحة يقدمها لها الرجل الحكيم.

- ألا تريد الصغيرة احتساء الشاي معنا؟ من يُحضِّر مشروبًا لذيذًا هكذا، طبعًا سيودُّ تذوقه.

- لا تحتسي "لاتاشا" الشاي، فهي تقول إنه لا يعجبها وتفضِّل تناول الحلوى واللحم المشوي.

رفع المحاسب الشيخ حاجبيه متفاجئًا، وظل يتفحَّص الفتاة وهي تسكب لجدتها كوبًا جديدًا من المشروب.

تمتم أخيرًا وهو يتجرَّع رشفة أخرى:

- هذا، طبعًا، عامل يجب أخذه بعين الاعتبار.

- عامل؟

- أتعلمين يا سيدة "برانكا"؟ منذ زيارتكِ الأخيرة لمكتبي، بتُّ أفكر كثيرًا في حالتكِ ومدخراتكِ. ففي الواقع أنا قلق جدًّا بشأنك.

- قلق؟

أخرج من جيبه ورقة وقلمَ رصاصٍ ليرسم خطين عمودين قائلًا:

- إذا رسمنا رسمًا بيانيًّا يا سيدة "برانكا" وحسبنا بعض الحسابات البسيطة، ووضعنا النقاط على الرسم البياني الخاص بنا، سنجد الخط الذي يمثل أرباحَك على مر السنين.

يرسم خطًّا موازيًا للمحور الأفقي للرسم البياني.

- لاحظي أنه خط ثابت، وهذا يعني أن أرباحكِ لم تزدَد بمرور الوقت.

قال الجملة مباشرة بشكل قاطع وبنبرة حزينة، أكمل:

- فقد وصلتِ إلى الحد الأقصى. يمكننا القول إن مصدر الادخار قد جفَّ.

ارتعشت يدا السيدة "برانكا" وسألت مُتَلَهِّفة:

- هل سأصبح فقيرة؟

أكمل المحاسب وهو يرسم خطًّا آخر:

- انتظري. يوجد خط آخر يجب رسمه؛ الخط الذي يمثل نفقات المنزل والطعام والملابس ونفقات الفتاة أيضًا. سترين أن هذا الخط، على عكس الآخر،

يتصاعد بمرور الوقت. في نهاية المطاف، حفيدتكِ في حاجة إلى كتب للدراسة، وملابس الأطفال الأكبر سنًا هي أغلى ثمنًا، وعندما نكبر، نأكل أكثر فأكثر.

تُحرِّك السيدة "برانكا" رأسها وهي يتملكها الأسى.

قال المحاسب وهو يكشط الشكل البياني:

- لاحظي أن الخطين يلتقيان عند نقطة ما، في هذه النقطة هنا؛ النقطة التي تصبح فيها النفقات أكثر من الدخل، وهي النقطة التي ستتسبب في تدهور مالي حتمي، وتؤدي إلى غرقكِ في الديون في غضون بضعة أشهر.

رأت "لاتاشا" دمعةً تتساقط على وجه جدتها المتجعد، ولم تفهم تمامًا كلمات عالم الرياضيات العجوز ذاك، لكنها استطاعت استنتاج أن الأخبار التي رواها في تلك الأسهم والنقاط ليست مبشرة بالخير.

قالت الجدة محاولةً إيقاف بكائها:

- ماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك؟ فأنا أعمل ليلًا ونهارًا، و"لاتاشا" تساعدني أيضًا حين عودتها من المدرسة. لا يمكنني كسب أكثر من ذلك.

ابتسم المحاسب بعطف، كما لو كان يحمل الحلَّ في جيب معطفه الرث قائلًا:

- لاحظي يا سيدة "برانكا" أننا لا نستطيع تغيير خطِّ الدخل، فلا يتبقى لدينا المزيد من الخيارات سوى تغيير الخط الآخر وهو خط المصروفات.

- كيف؟

- بتقليل المصاريف وحرمان النفس من الأشياء التافهة.

- لكننا نعيش حياةً متواضعة فعلًا، لا يوجد أحد في القرية لديه ممتلكات كثيرة. وتصل المنتجات إلى هنا باهظةَ الثمن لأن العاصمة بعيدة.

- لكن من الممكن دائمًا تقليل المصروفات يا سيدة "برانكا"، دائمًا! فعلى سبيل المثال، يمكنكِ أن تطلبي من حفيدتكِ تقطيع الحطب بنفسها، فهي شابة وتتمتع بصحة جيدة ولن تضطرِي إلى شرائه بعد الآن. ويمكن أيضًا تقليل نفقات الصابون، وفعل الشيء نفسه بنفقات الكتب. فالكتب يا سيدة "برانكا" هي أشياء عديمة الفائدة تمامًا! وفي أوقات الأزمات التي تعيشينها، أصبحت دراسة الفتاة أمرًا غير مناسب. بل العكس تمامًا! يجب أن تبقى في المنزل، وتساعد في الأعمال المنزلية، تنتج أكثر حتى يزيد الدخل، أما الكتب، فيمكن استخدامها كحطب للوقود.

تحاول السيدة "برانكا" الشرح:

- ولكن...

- هذا ليس كل شيء طبعًا، يجب أن تعرفي أن أكبر نفقات المنزل هي الطعام، انظري إلى وجنتيْ هذه الفتاة الجميلة، الممتلئة، المتورِّدة، والمفعمة بالصحة والحيوية. أنا على استعداد للمراهنة على أن حفيدتكِ يمكنها استهلاك كمية أقل من الطعام، كتناول الحساء والفواكه والشاي. إنه طعام رخيص ومتوفر. أما تناول اللحوم المشوية والحلوَيَات كل يوم، يكلف كثيرًا.

قالت وهي خائفة:

- أتفهَّم.

- حسنًا يا سيدة "برانكا"، يجب أن تبدئي بالادخار. أتسمعينني؟ يجب أن تكون هذه هي الكلمة الأساسية لديكِ ابتداءً من اليوم. "الادخار". ابدئي بجمع النقود المتبقية والعملات المعدنية الصغيرة، شيئًا فشيئًا، وستدخرين الكثير من المال، أنا متأكد من ذلك. هذا ما أفعله في المنزل مع فتياتي أيضًا. إحداهما تدرس والأخرى تعمل. أكل اللحوم، مرة فقط في بداية الشهر، أو مع وجبة واحدة بين حين وآخر. والمكرونة رخيصة أيضًا، لكنَّ الصلصات غالبًا ما تكون باهظة الثمن، إذن من الأفضل تجنبها.

تُدوِّن الجدة ملاحظات الرجل باهتمام.

ختم المحاسب حديثه قائلًا:

- لقد أحضرتُ هدية لكِ يا سيدتي للمساعدة، لكي تبدئي بادخار النقود هنا في هذه الحصالة، ثم تتركينها هناك فوق الموقد كلما استطعتِ.

أخرج الرجل من الحقيبة حصالة على شكل خنزير ذي لون وردي وفي ظهره فتحة لإدخال النقود.

- سأفعل ذلك.

- حاولي ألا تكسري الخنزير، حتى في أوقات الضيق، اتركيه هناك موجودًا على الموقد مليئًا بالنقود نكلة تلو الأخرى. فكسره سيعني خسارة لثروتكِ واستعدادكِ لإنفاق مُبالغ فيه، وهذا ليس شيئًا جيدًا على الإطلاق يا سيدة "برانكا".

- حقًّا، ليس شيئًا جيدًا.

- اكسريه فقط إذا طرق الخراب بابكِ، وأقصد بذلك الخرابَ الحقيقيَّ وليس ذلك الخراب العابر.

وهكذا غادر المحاسب.

منذ ذلك اليوم، تحوَّلت حياة "لاتاشا" إلى كابوس، تتحكم بها مدخرات جدتها وتفاهاتها الدنيئة التي قررت في الأسبوع التالي أنه يجب إيقاف دراسة حفيدتها من أجل استقرار وضع العائلة المالي. فكرَّست "لاتاشا" حياتها فقط لحرفة الحياكة واستطاعت أن تزيد دخل الأسرة، دون تلقي أي عائد مقابل عملها، فيُودَع كل ما تجنيه على الفور في خنزير البورسلين الوردي، فالرفاهية ممنوعة.

هكذا قالت الجدة وهي تضع النقود في الحصالة بأصابعها العظميَّة، مبتهجة كلما سمعت رنين النقود التي تتراكم بعضها فوق بعض.

كبرت "لاتاشا" ونحلت. وعندما أصبحت في الثانية عشرة من عمرها، أصبح وزنها أقل مما كان في عامها العاشر. أصبح تناول الحلوَيات واللحوم حدثًا نادرًا، فهي تُقدَّم فقط في المناسبات الخاصة. تعلمت "لاتاشا" حبَّ الشاي وأكل المكرونة دون توابل، وأصبحت تحيك الملابس أيضًا بأقمشة ذات جودة أسوأ، تهترئ بعد الغسلة الأولى. وازدادت كراهيتها لجدتها على مر السنين، بسبب إهاناتها الفظَّة وكميات الطعام القليلة التي تقدمها لها.

ذات صباح، رأت "لاتاشا" جدَّتها تأكل في الخفاء، تلعق أصابعَها بشراهة، منتهكة بذلك المبادئ التي طبَّقتها لمصلحة جوعها الخفي. أما الفتاة فلا تستطيع فعل الشيء نفسه، فتعد السَّيدة "برانكا" الكعك في

البرطمانات وتغلق خزائن الطعام كل ليلة قبل النوم. وعرفت "لاتاشا" أنها ستُعاقَب إذا اكتشفتْ جدتها فعلتها في فجر اليوم التالي.

في الآونة الأخيرة، اضطرت الفتاة إلى شرب الماء لمدة أسبوع كامل، دون أن تأكل شيئًا.

بكت الفتاة في ليالٍ كثيرة، لأنها كانت تحت مراقبة العجوز الدائمة التي تجمع العملات المعدنية في حصالة على شكل خنزير لعين.

وفي عيد ميلادها السادس عشر، أدركت "لاتاشا" أنها لا تستطيع تحملها بعد الآن، ورأت في المرآة الخطوط العريضة لعظامها تحت جلدها الرقيق، وكشف وجهها عن جمجمة حيَّة، تعرَّضت للانتهاك سنوات من جدة مهووسة.

تحلَّت بالشجاعة وأخذت حصالة الخنزير البورسلين الموجودة فوق المدفأة، فقد سافرت الجدة إلى العاصمة وقد لا تعود حتى حلول الليل. لساعات، أخذت "لاتاشا" تتحقق في الشيء، محاولةً استخراج عملة معدنية دون الحاجة إلى كسره؛ تجولت أصابعها القصيرة في فتحة الحصالة، باحثةً باستماتة حتى تجد العملات المعدنية الباردة. هزت الفتاة حصالة الخنزير في الاتجاه المعاكس، على أمل أن تسقط نكلة على الأرض. دون دراية ومنهكةً، غفت على الأرض وهي تعانق خنزير البورسلين.

أيقظتها صرخة السيدة "برانكا" التي تصمُّ الآذان، والتي شُلَّت للحظات في المدخل، وعيناها مثبتتان على مكان الحصالة. استيقظت "لاتاشا" في حالة ذهول، وهي تتخيل فعلًا تفسيرات تقدمها لجدتها. في لحظة سهو، انزلقت الحصالة من أصابعها المرتجفة وتحطمت على الأرض الباردة، وانهار الخنزير إلى قطع صغيرة على السجادة، بين صرخات مدوية في غرفة المعيشة في المنزل، مع ذلك لم تسقط عملة واحدة من حصالة البورسلين.

ركلتها الجدة قائلة:

- أين نقودي؟ أيتها اللصة، أين أموالي؟

لم تعرف "لاتاشا" ماذا تقول. لم تفهم أين يمكن أن تكون العملات المعدنية، لقد سمعتها قبل لحظات، أليس كذلك؟ وسمعت قعقعتها الرنانة التي كانت تحثها على سرقتها.

كررت الجدة السؤال وتقدمت نحو حفيدتها ويداها تستعدان للطمها:

- أين نقودي؟

دفعت "لاتاشا" جدتها مدافعةً عن نفسها، ترنحت السَّيدة "برانكا" في ذهول، وتلفَّظت بصوتها الفظ ببعض الألفاظ النابية ثم حاولت أن تحكم

قبضتها على حفيدتها، لكن تدفعها بعيدًا مرة أخرى. ترنح جسدها خطوتين إلى الوراء لتُجرَح قدماها من قطعة بورسلين كبيرة، والتي كانت ذات يوم أنف الخنزير. ترنحت السَّيدة "برانكا" واختل توازنها لتسند رأسها إلى زاوية الطاولة في منتصف الصالة.

أمسكت "لاتاشا"، اليائسة، بجدتها الملطخة بالدماء وطلبت المساعدة من الجيران.

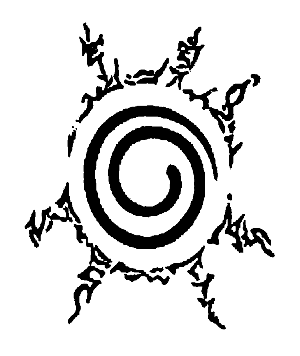
تعافت السَّيدة "برانكا" بعد أسابيع فقط، في ظل تعليمات الطبيب المتكررة أنها لا يمكنها التوقف عن الأكل أو المشي، ويجب أن تحرك ساقيها بشكل محدودٍ للغاية، فبالكاد يمكنها الوقوف لبضع دقائق. وقال الطبيب لـ"لاتاشا":

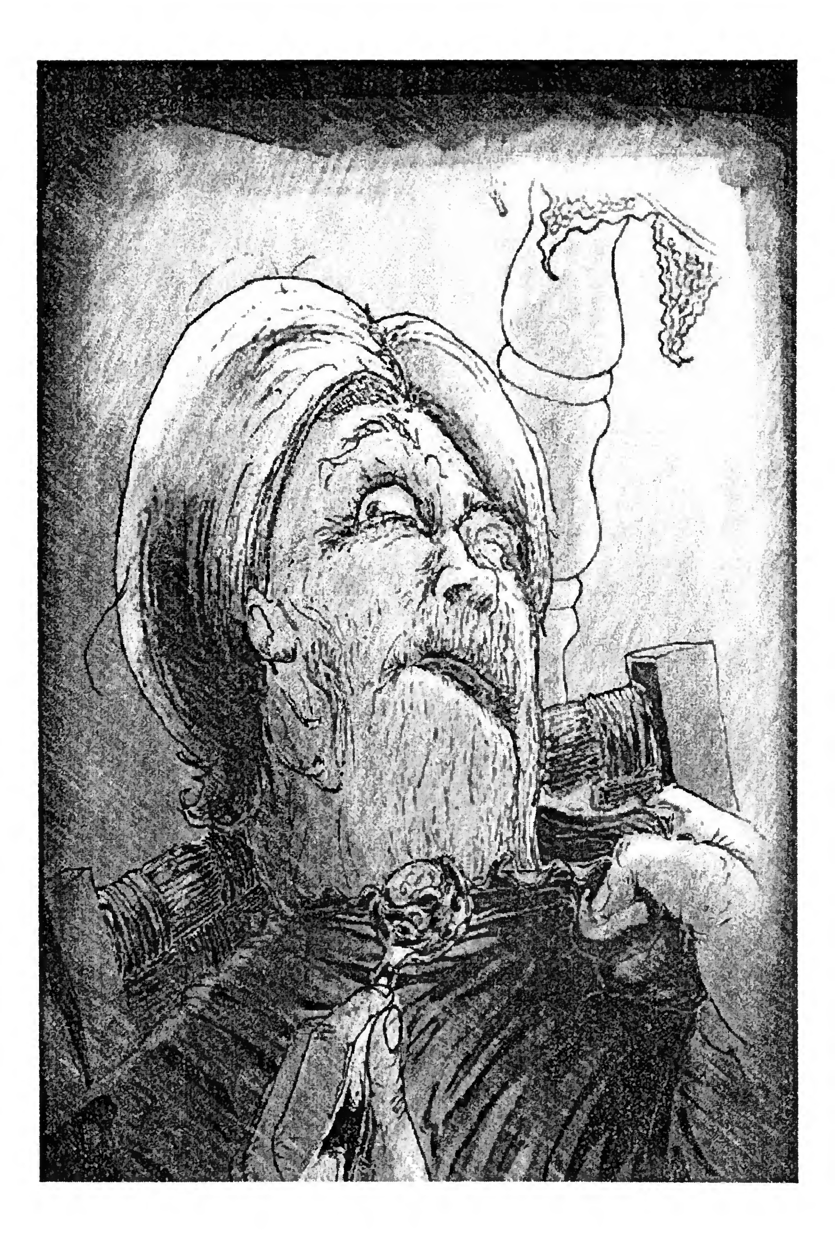
- اعتني بجدتك جيدًا يا فتاة، فهي لم تعُد كما كانت وأنتِ أصبحتِ المسؤولة الآن. اعتني بها بالمودة نفسها التي ربَّتك بها.

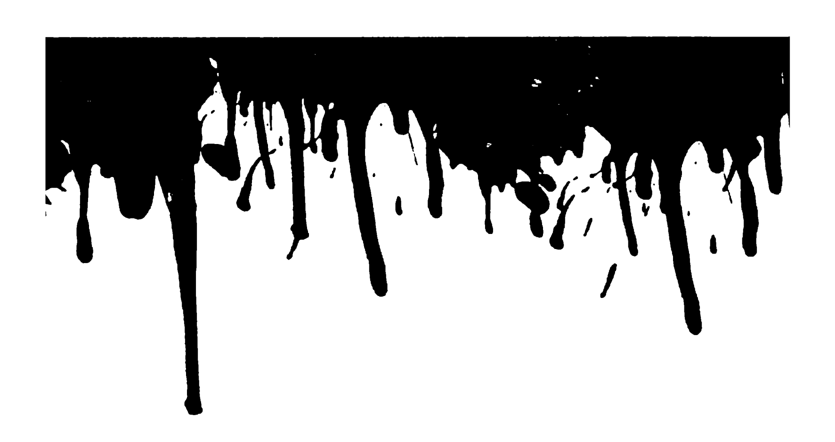
تقبَّلت "لاتاشا" تعليمات الطبيب باحترام، رغم زيادة عبء العمل لديها، وسعت لكسب المزيد والمزيد من العملات المعدنية، وفقط كانت تتوقف لرعاية جدتها التي حمَّمتها دوريًا وكانت تعطيها الطعام في فمها.

تفاجأ الجميع عندما تُوفِيَّتْ العجوز بعد عدة شهور ونُقِلَ الجثمان إلى مستشفى العاصمة. كانت هناك شائعات تفيد أن السيدة "برانكا" ماتت مسمومة. ووفقًا للتقرير الطبي، لم يكن هناك طعام في معدتها، بل كتل من المعدن الصدئ، فعلى الأرجح ظلت العجوز تأكل النحاس والنيكل في الآونة الأخيرة.

مذعورة، تنفي "لاتاشا" بشدة أي اتهام موجه إليها، معللة أنها لم تكن قادرةً على ارتكاب مثل تلك الفظائع ضد جدتها المسكينة، فعلى العكس تمامًا، دائمًا ما أطعمتها أكثر طعام أحبته.







الغـضـب

"إبليس"



رجلٌ ذو أسماء عدَّة

قرَّب "أناطولي" يديه من النار. اندفع تيار من الهواء الجليدي القادم من الشرق يهز الأشجار ويُجبر الثعالب على اللجوء إلى مخابئ تحت الأرض. لم يُعد "أناطولي" يشعر بعضلاته؛ ناهيك برجليه اللتين كانتا صلبتين ورشيقتين، فأصبحتا ترتجفان كالأغصان المجمدة.

حسب إحصاءاته، لقد غادر المنزل منذ واحد وستين يومًا، لكن من الممكن أن يكون مخطئًا، لا يمكن أن يتحمل كل هذه المدة، ثم أدرك أنه فقد وعيه في بعض الأحيان في أثناء الرحلة، وقاده الجوع والعطش إلى الاستسلام، وفقد عقله خلال رحلته، ودُفِنَ تحت طبقة الجليد السميكة التي ازدادت مع كل عاصفة ثلجية.

بات جسده خاملًا متشبثًا بآخر خيط من الحياة يحتاج إلى الحرارة المنبعثة من الخشب المتطاير. بعينين مغلقتين، لا يشعر بأي ألم، ترك

"أناطولي" النارَ تحرق أصابعَه، فيحل محل البرد شعور بالحكة الملتهبة، في حين تهيمن رائحة لحمه المحترق في الهواء.

تيقن "أناطولي" أنه حتمًا سيموت، فكل العلامات جعلته متأكدًا أن الموت أصبح وشيكًا. وأخذ يفكر في أطفاله الثلاثة "روريك" و"مايشا" و"أجافيا"، فلا بدَّ من أنهم جوعى، ويفكر في "فيليكا"، زوجته التي تركها وراءه بعد أن وعدها أنه سيعود قريبًا ومعه الطعام. أراد البكاء، لكن لم تنزل أي دمعة على وجهه الضارب إلى الزرقة، لقد فشل، لطالما اعتبر نفسه رجل العائلة الصالح، الصارم، الشجاع الذي يتغلب على الطقس السيئ اليومي في القرية؛ ولكن البرد نال منه. إنه على بعد أميال من المنزل، وربما "فيليكا" ملَّت انتظار عودته ويؤلمه التفكير في أن في تلك اللحظة قد تكون زوجته الضعيفة قد ماتت فعلًا، وربما أطفاله أيضًا.

سمح "أناطولي" لنفسه أن ينجرف مع الذكريات، تاركًا النار تأكل جلده دون أن يشعر بأي ألم جسدي يمكن أن يفوق شعوره بالخجل من ذاته. تذكر "فيليكا" وهي مبتسمة ومفعمة بالحياة، وعيناها تلمعان، وقبلتها اللذيذة التي كانت تمنحها له كل صباح، وسعادتها المطيعة التي تكوي بها ملابسها أو تحضِّر اللحمَ المشويَّ بالأعشاب لتناول العشاء. وتذكر أيضًا "مايشا" و"أجافيا"، أميرتيه الصغيرتين، صاحبتي القلبين النقيين وأحلام الأميرات، ثم رأى "روريك"، الابن الأصغر، ذا الملامح الصارمة، ملامح رجل

حقيقي، والتي كانت لديه أيضًا عندما كان طفلًا. مع صغر سنه، أظهر "روريك" الشجاعة المتوقعة من حفيد "آل سوهانوف"، فلولا إصرار والدته على أنه لا يزال صغيرًا، لاصطحبه "أناطولي" إلى المدرسة العسكرية.

إنه يعلم أنه كان أبًا صارمًا؛ في بعض الأحيان، أزعجته تصرفات أطفاله الطفولية، فكان يقوِّمهم ببعض اللطمات. تلك الطريقة التي انتقلت من جيلٍ إلى جيل. واعترف أيضًا بارتكابه بعض المبالغات، كالندبة الموجودة في حاجب "أجافيا" الأيسر التي نتجت عن ضربه المبرح لها، لقد ندم على ذلك حقًّا.

عندما كان طفلًا، علَّمه والده "ألكسندر سوهانوف" آداب الطعام، فلم يسمح لأطفاله أبدًا المضغ بأفواهٍ مفتوحة أو سرد الحكايات في أثناء تناول الطعام، فهو لا يملك...

قطعت حبلَ أفكار "أناطولي" يدٌ رفعت رقبته وقرَّبت فم الزجاجة من شفتيه الجافتين وارتفع صوت رجل قائلًا:

- اشرب، إنه نبيذ، اشربه بعناية حتى لا تختنق.

فتح "أناطولي" عينيه، محاولًا استيعاب ملامح ذلك السامري الصالح.

أكمل صاحب الصوت:

- يداك محروقتان ويمكن أن تسوء حالتهما. لديَّ بعض المطهرات التي يمكنها تخفيف الألم بعضَ الوقت.

- لا أشعر بالألم.

رد "أناطولي" وهو يتجرَّع السائل بين رشفة والأخرى ويتركه ينزل في حلقه دون أن يتذوق طعم النبيذ.

- أتشعر بالجوع؟

- نعم.

قال وهو يفتت قطع الخبز حتى يستطيع "أناطولي" مضغه بسهولة:

- كل الخبز. فأنت على وشك الموت يا بني.

لم يولِهِ "أناطولي" اهتمامًا. ابتلع الفتات وتجرع النبيذ في جرعات لكي تدفع الطعام إلى معدته. بلل الرجل وجه "أناطولي" بالماء وكذلك صدغيه.

- كل واشرب دون عُجالة. لا يمكن ادخار الزاد عندما تكون حياة إنسان معرضة للخطر.

وافقه "أناطولي" الرأي، ومضغ الخبز. بعينين شبه مغلقتين، تفحَّص الرجل الذي أنقذ حياته؛ عجوز، عموده الفقري منحنٍ كجذع شجرة عمرها قرن من الزمان، وعيناه تشعان ذكاءً.

- شكرًا يا سيدي، لولا مساعدتك، لأصبحتُ في عداد الأموات.

ابتسم العجوز عندما رآه يستعيد عافيته.

- أنت محظوظٌ أنني وجدتكَ، يا ترى ما اسمك؟

- "أناطولي".

شدَّد قائلًا:

- لديكَ حظٌ عظيمٌ فعلًا يا عزيزي "أناطولي". ماذا تفعل في هذه المنطقة؟ هل ضللت طريقكَ؟

- أنا أعيش في قرية تقع على بعد كيلومترات من هنا، أهل القرية كلهم يموتون، المخارج كلها رُدِمَتْ تحت الثلج، وتجمَّدت البحيرة. لم يعد الطعام يصل إلى هناك. لقد دمر البرد تجارتنا ومحاصيلنا. ولم يتبقَّ شيء.

- أنا آسف لسماع ذلك.

- لديَّ زوجة وثلاثة أطفال لأعتني بهم، لا أستطيع تركهم يموتون. خرجت بحثًا عن الطعام، فأنا صياد ماهر، لكنني لم أحصل على أي شيء. أشعر بالعار.

- كم يومًا مضى وأنت بعيد عن المنزل؟

- أكثر من خمسين يومًا، أعتقد أنني فقدت الشعور بالزمن منذ أن دخلت الغابة.

- هل تخطط للذهاب إلى المدينة سيرًا على الأقدام؟

انتهى "أناطولي" من شرب زجاجة النبيذ ثم قال آسفًا:

- لا أعرف ما الذي بوسعي فعله، أريد العودة إلى منزلي ورؤية أطفالي، وتقبيل زوجتي، حتى لو للمرة الأخيرة. لكن لا فائدة من العودة دون طعام. سنموت جميعًا.



- تحلَّ ببعض الأمل!

- لم يعُد الأمل يفيد، لقد نُسِينا.

- نُسِيتُم ممَّن يا بني؟

فكر "أناطولي" ثم أجاب:

- من العالم، من الرب.

أجاب العجوز مطلقًا ضحكة ساخرة:

- أو على الأغلب تذكركم الشيطان.

- في الواقع، أنا لا أؤمن بالرب ولا بوجود الشيطان.

- أعتقد أن عدم إيمانكم بوجودهما لا ينفي حقيقة أنهما موجودان فعلًا.

- ماذا تريد أن تقول يا سيد؟ أنتَ لم تخبرني باسمك إلى الآن.

قال العجوز بابتسامة أخرى:

- أنا عجوز يا بني، لديَّ أسماء كثيرة. لقد نسيت فعلًا أي منها الصحيح، لكنني معجب بشجاعة المتشككين في الدين.

- هل أنت متشكك أيضًا؟

أومأ العجوز إيماءة غامضة.

- لديَّ بعض الغنائم من الصيد في حقيبتي يمكنك الاحتفاظ بها، لقد أُعجَبْتُ بكَ يا "أناطولي" ولن تكلفني مساعدتك شيئًا.

قَبِلَ "أناطولي" الحقيبة التي قدمها له العجوز وفحص ما بداخلها بنظرة ذعر.

- توجد بداخلها بعض الأرانب والفئران التي اصطدتها في طريقي. أنا ذاهب إلى المدينة وسأحصل على المزيد من الطعام هناك، يمكنك الاحتفاظ بهذه الغنيمة.

واجه "أناطولي" الرجل مرة أخرى، لا يمكنه تصديق أنه أخيرًا قد حالفه الحظ، لقد أنقذ حياته، فبهذا الصيد يمكنه إطعام عائلته شهورًا.

- شكرًا جزيلًا يا سيدي، شكرًا جزيلًا. ولكن كيف.. كيف تمكنت من اصطياد الكثير من الحيوانات؟

- عندي إيمان يا بني.

- إيمان بالرب؟

هزَّ العجوز رأسه وغادر دون أن ينظر إلى الخلف.

مشي "أناطولي" مدة خمسة أيام كاملة. يحفزه الأمل على الاستمرار دون راحة؛ فهو في حاجة إلى الوصول إلى القرية للقاء عائلته قريبًا. بالكاد استطاع تمالك سعادته عند رؤية منزله الصغير، المحصور بين الأراضي المجاورة. ويلون الثلج صمت المكان المهجور.

قرع "أناطولي" الباب مرتين برفق، مرتعبًا من فكرة عدم قدوم أحدٍ ليفتح له الباب، وسرعان ما شعر بالارتياح لرؤية وجه زوجته الذي ظهر خلف ستارة النافذة وابتسم بسعادة، بادلته "فيليكا" الابتسام وفتحت له الباب بسرعة. ارتمت "فيليكا" بين ذراعيه وقبَّلته قبلة حارة. أراها الحيوانات الميتة التي حملها في حقيبته. وعندما قرص وجنتيها، لاحظ مدهوشًا أن "فيليكا" أصبحت أقوى، وكأنها قد ازدادت وزنًا في أوقات الجوع والبرد تلك.

- أنتِ رائعة يا عزيزتي.

- لقد تصرفتُ على طريقتي الخاصة.

- حتى إنكِ تبدين... سمينة أكثر!

- لا تكن أحمق يا "أناطولي"!

- أين الأطفال؟

- جالسون على المائدة، يتناولون العشاء. علينا الاحتفال!

تحمستْ وطبعتْ قبلة أخرى على وجِنة زوجها وأرشدته إلى الصالة.

تجمد في مكانه، لا يمكن تصديق ما رآه. رفرفت عيناه من اليأس وكاد يسقط على الأرض. خرج سائل ساخن من حلقه وتقيأ "أناطولي" على المقعد الذي كان يتكئ عليه. حافظت "فيليكا" على ابتسامتها، وكأنها تتوقع منه تعليقًا لطيفًا.

ملأت رائحة اللحم المتعفن الهواء، تنبعث من الجثث المقطَّعة المتناثرة في الغرفة. أصبحت أرضية المنزل تجمعات هائلة من الدم المتخثِّر. تعرَّف "أناطولي" في ملامح الجثث، التي كانت في مرحلة تعفن شديدة، العديدَ من سكان القرية مثل "كريجر"، "إيڤان"، "لاتاشا"، "ڤاليا"..

- ماذا يحدث هنا؟

بخطوات متعثرة، ذهبَ باتجاه المطبخ، وعيناه الدامعتان ترفضان قبول المشهد أمامه؛ فأطراف أبنائه الثلاثة وأعضاؤهم متناثرة حول طاولة غرفة الطعام كقطع اللحم المختارة.

سأل ليصدمه هدوء زوجته:

- جالسون إلى المائدة، يتناولون العشاء. علينا الاحتفال!

اقتربت "فيليكا" من المشهد السقيم بخطوات سلسة وربتت رأس ابنتها المقطوع. قالت وهي تقضم إصبعًا صغيرة مشوية متبقيةً في طبقها:

- هل رأيتم يا أطفال؟ لقد أحضر والدكم الطعام. لن نتضور جوعًا بعد اليوم.

شعر "أناطولي" بالدوار فاقدًا توازنه.

- هيا الآن يا عزيزي، تعالَ وقبِّل أطفالك. إنه يوم مميز. سأعد وليمة للعشاء.

بذل "أناطولي" جهدًا ليستطيع التحدث قائلًا:

- وليمة؟! إنهم موتى يا "فيليكا"، موتى!

راقبت "فيليكا" الطاولة بهدوء، ثم نظرت إلى زوجها بنظرة غاضبة.

- لا تتحدث بهذه الفظائع على طاولة الطعام يا حبيبي.

- لقد قتلتِهم يا "فيليكا"، قتلتِ أطفالنا!

ارتسمت ابتسامة ضعيفة على وجه الزوجة، كأنها بدأت لتوِّها استيعاب سبب انزعاج زوجها.

- إنه البرد يا عزيزي. البرد والجوع.. كنت في حاجة إلى فعل أي شيء. كان عليَّ قتل بعض الحيوانات، وإلا متنا جميعًا. كنت في حاجة إلى حماية أطفالنا.

صرخ "أناطولي" ليفقد توازنه مرة أخرى قائلًا:

- أنتِ مجنونة يا "فيليكا"، مجنونة!

شاهد العينين الخضراوين للصغير "روريك" تطفوان في مرق سميك من الأحشاء المطبوخة التي لا يزال يتصاعد منها البخار في وعاء من الفخار. تدمرت عائلة "آل سوهانوف" المعروفة، ولم يتبقَّ أحد من دمه.

- أيتها القاتلة اللعينة!

- لا تصرخ في وجهي يا حبيبي، ستوقظ أطفالنا!

- ماذا حدث لكِ؟ لماذا تتصرفين هكذا؟

- لم يحدث شيء يا "أناطولي". لا يمكنني أبدًا إخفاء أي شيء عنكَ. فأنا زوجة مخلصة، حاولت الاعتناء بعائلتنا في أثناء غيابك وتمكنت من إدارة الطعام جيدًا والآن أنا سعيدة للغاية بعودتك!

تملؤه الكراهية، تقدَّم "أناطولي" نحو "فيليكا" ولطمها. سقطت "فيليكا" على الأرض فاقدة توازنها. تحاول عبثًا تفادي ركلات زوجها الغاضب.

تأوه "أناطولي" وابتعد مشتعلًا من الغضب قائلًا:

- أيتها القاتلة المجنونة!

- لا تفعل ذلك يا "أناطولي"، لم أفعلْ أيَّ شيء! فالسيدة "هيلجا" جاءت هنا اليوم وقالت إنَّ هناك شخصًا ما يقتل أهل القرية، لقد قُتِلوا جميعًا، "أستور" أيضًا، القرية أصبحت مهجورة وكان يتعيَّن عليَّ إيجاد طريقة لإطعام أطِفالنا!

قال غاضبًا:

- لقد قتلتِ الأطفال يا "فيليكا"! وأهلكتِ أهل القرية! انظري إلى الطاولة. انظري يا لعينة! لقد شويتِ أطفالنا! ذبحتِهم! أنا أحضرتُ الطعام، جلبتُ الأرانب والفئران، لم يكن عليكِ قتلهم!

بكت "فيليكا" من ضربات زوجها العنيفة لها.

- لقد اختلطَ عليكَ الأمر بالتأكيد يا عزيزي. دائمًا كنتَ سريع الانفعال، فأنا لم أفعل أي شيء.

لم يحتمل "أناطولي" مثل هذه اللامبالاة. التهمه غضبه الداخلي وهو يشاهد الابتسامة الهشة التي تضفي النقاء إلى وجه "فيليكا" البدين. خرج "أناطولي" عن السيطرة واندفع نحو المرأة، وقبض على رقبتها بيدين حازمتين.

شهقت "فيليكا" و"أناطولي" لا يخفف الضغط على رقبتها قائلة:

- "أناطولي"، أنت... لا... كنت في حاجة إلى إطعام... جاء عجوز غريب إلى هنا منذ أسابيع، يسأل عن الطعام. قال إن... قال العجوز المنحني إن المنطقة كلَّها مدمرة، والكل جياع، وقال إنه من الضروري تخزين الطعام، أنا لم أفعل أي شيء يا "أناطولي". أنا فقط...

صمتت شفاه "فيليكا" المرتبكة وانطفأ بريق عينيها ليتجهم "أناطولي" حزنًا، وتتساقط دموعه على وجه زوجته المتوفاة.

❀❀

"ماذا فعلت؟ أطفالك ماتوا، وقُطِّعَتْ أعضاؤهم ، وقتلت زوجتك بيديك. لم يتبقَّ أحد من عائلة سوهانوف".

بكى "أناطولي"، لقد حُرِمَ من كل ما لديه في الحياة. يريد أن ينسى هذا الألم، وأن يعود إلى ما قبل موتهم، قبل أن يلتقي العجوز ويعطيه الطعام.

تذكر "أناطولي"، وانتابته القشعريرة، كلمات زوجته الأخيرة:

"جاء عجوز غريب إلى هنا منذ أسابيع، يسأل عن الطعام. قال العجوز المنحني إن المنطقة كلَّها مدمرة، والكل جياع".

هل يمكن أن يكون العجوز المنحني الذي زار "فيليكا" هو الشخص نفسه الذي أعطاه تلك الحيوانات المذبوحة، أم إن زيارة هذا العجوز هي جزء من وهم "فيليكا"؟ لم يعد قادرًا على البقاء هناك مدة أطول، وغادر "أناطولي" المنزل. كان يستنشق الهواء بصعوبة، وطرق البيوت المجاورة، لكن لم يجبه أحد.

"يوجد شخص ما يقتل القرويين".

لا يزال غير مصدقٍ أن "فيليكا" قادرة على ارتكاب مثل هذه الفظائع؛ فهؤلاء الأشخاص كانوا أصدقاءها، لطالما قضوا ليالٍ طويلة في موائد العشاء التي أعدتها لهم "فيليكا" بكل سرور.

"السَّيدة "هيلجا" كانت هنا اليوم".

قرع "أناطولي" باب العجوز العمياء. لا يستطيع تصديق أنها لا تزال حية، فهي ضعيفة وعاجزة. لن تستطيع مقاومة البرد والجوع مدة طويلة.

- ادخل، الباب مفتوح.

أدهش "أناطولي" الصوتُ الذكوريُّ الذي تردَّد داخل المنزل، فقد عاشت السيدة "هيلجا" بمفردها سنواتٍ، منذ وفاة العقيد "ديميتري" في الحرب. تردَّد بضعَ ثوانٍ قبل أن يفتح الباب، وتكرر الصوت بحزمٍ:

- هيا يا "أناطولي"، ادخل الآن.

تقدم متوترًا بضع خطوات إلى الأمام، وعيناه المرتبكتان تفحصان كل شبر في غرفة المعيشة. ووجد السيدة "هيلجا" على كرسي هزاز وفستانها الداكن مبلل بالدماء التي تتدفق من رأسها وفي يدها اليمنى مسدس.

- ماذا...

خرج العجوز المنحني من زاوية مظلمة ومد يديه ليحييه تحية ودية قائلًا:

- عزيزي "أناطولي"، أنا سعيد لرؤيتك مرة أخرى، هل ساعدك الطعام الذي أعطيتك إياه؟

- ما الذي تفعله هنا؟ مَن أنت؟ كيف يمكن...؟

رفع العجوز حاجبيه.

- اطرح سؤالًا واحدًا تلو الآخر يا بني. أنتَ فقدتَ السيطرة على نفسك.

قال "أناطولي" آسفًا:

- أهل القرية... لقد ماتوا كلهم، ولم يتبقَّ أحد! و"فيليكا"... قالت... لقد قالت إنه زارها عجوز منحنٍ، أكان أنت؟

- أين زوجتك يا بني؟

قال وهو يشعر بألم لم يشعر به قط:

- أنا... قتلتها! لقد قتلتها! فهي ذبحت أطفالنا... وقتلت القرية بأكملها. إنها مصيبة كبيرة. وأنا فقدت زمام الأمور.

- لم تتحكم يومًا في زمام الأمور، إنه تفكيرك الخاطئ كشأن كل الرجال مثلك.

- ماذا تقصد؟

- لقد كانت تجربة ممتعة يا "أناطولي". بدأتُ منذ سنوات عدَّة في العاصمة. كان لديَّ حينها فعلًا مظهري نفسه اليوم، الشيخ المنحني، كما يلقبونني. ذات يوم، كنت في بيت للبغاء، فأنا أحب أن أكون في مثل هذه الأماكن، حيث يبدو العفن البشري مطبوعًا على وجوه البشر. وكان هناك صبي يجلس بالجوار. رأيت في عينيه أنه كان شخصًا مريضًا، تظهر فيهما الخطيئة في أنقى صورها.

- أي صبي؟

- واحد من الآخرين، اسمه "ميخائيل".

- الأَجْذَمُ ؟

ابتسم الشيخ لهذه التسمية وجلس على المقعد المجاور للسيدة "هيلجا"، وأكد قوله:

- نعم الأَجْذَمُ. لقد رأيتُ في كثير من الناس في هذه القرية ميلهم إلى ارتكاب الخطيئة، وكأنهم انعكاس لهذا العالم. لقد جمع هذا المكان كل أنواع البشر الأشرار قليلي الحيلة الذين كنت دائمًا أفتخر بهم.

- مَن أنت؟

- اعلم يا "أناطولي" أنني لم أزرع الخطيئة أو الشر في الناس قط، بل كان موجودًا هناك فعلًا. إنني فقط أشجعهم.

- كيف؟

- البشر يملأهم الشر الكامن بداخلهم، فكان "ميخائيل" سعيدًا لرؤيتي في بيت البغاء، في المقعد المجاور لي، مع تلك الفتاة في حِضني، فهو أراد أن يحلَّ محلي أيضًا، لقد كان في حاجة إليها.

- لا أفهم.

- بعد ذلك بوقت قصير، بعثُ اثنتين من الإماء السود لـ"إيڤان" الحداد. لقد رأيتُ في عينيَّ ذلك الرجل الذي يبدو بمظهر رجولي زيفَ عمله.

- لطالما كان "إيڤان" مثالًا للعمل الجاد في هذا المجتمع!

قال العجوز:

- هذا ما تعتقده يا بني. آه لكم ولأقنعتكم... ينتهي بكم الحال بخداع أنفسكم أيضًا، لقد استغرقتُ بعض الوقت حتى أعود إلى القرية في نهاية الأمر. علمتُ أنه وصل إلى هنا زنجي أعور وآوته سيدة طيبة، ليست عنصريةً، فقررت أن ألقي نظرة لأتأكد من ذلك. بمجرد أن غادرت محطة القطار، رأيتُ الخطيئة في عينيْ فتاة حلوة كانت تلعب مع اثنتين أخريين في أحد الأَفْنِيَةِ. بعد ذلك، كان من دواعي سروري أن أؤكد أن تلك السيدة الطيبة لم تكن غير عنصرية على الإطلاق... هي فقط آوت زنجيًّا للعمل لديها دون أي أجر أو نية لمساعدته في البحث عن بناته، وكانت ترى نفسها أفضل منه.

- السَّيدة "هيلجا"... ماذا فعلت بها؟

قال وهو يتفحص جسدها بازدراء:

- لقد قَتَلت نفسها. إن الخطيئة تقتلنا يا "أناطولي" يا عزيزي. لا يهم كم من الوقت تستغرق ولكنها تقتلنا في نهاية الأمر.

- من أنت؟

- كنتُ أيضًا محاسبَ السيدة "برانكا" سنواتٍ عدَّةً. لقد ذهبتُ إلى منزلها ذات يوم وعرضت عليها خِدْماتي مجانًا، من باب الصدقة، وأخبرتها أن بإمكاني تعليمها الادخار. فتلك المرأة المسكينة أحبَّت المال أكثر من أي شيء. لقد أعطيتُها حصالةً دون قاع، فهي لا تمتلئ أبدًا.

- زوجتي لم ترتكب أي خطيئة. لماذا فعلتَ هذا بها؟

- لقد خبَّأت "فيليكا" كعكًا وفئرانًا، ولكنها لم تعطني الطعام، وكنت جائعًا عندما ذهبت لزيارتها. فأُجبِرْتُ على إخبارها بالحقيقة: "إذا لم تفعل شيئًا، فستموت هي وأطفالها". إنه لأمر مؤسف إصابتها بالجنون، لقد كانت امرأة طيبة.

- أنت وحش!

- لقد أنقذتُ حياتك يا بنيَّ. كيف يمكنك أن تقولَ ذلك عني؟

نهض العجوز من كرسيه ورفع سبابته قائلًا:

- لقد كنتَ تضرب أطفالكَ باندفاع يا "أناطولي" والآن قتلتَ زوجتك، المرأة الوحيدة التي كنت تحبها، لقد خنقتها ولم ترفع أصابعك عن حلقها أبدًا وهي كانت في حاجة إلى نسمة من الهواء. أنت الوحش، وليس أنا.

- لقد أخطأت وندمت على ذلك!

- ندمك لا يغيِّر شيئًا يا بني.

احتقره العجوز المنحني وبكى "أناطولي" وشعر بجسده يضعف.

- لقد أحببتُ زوجتي.

تمتم العجوز مقتربًا من جسد السيدة "هيلجا":

- طبعًا أحببتَها، أنا لا أنكر ذلك، لكنكَ قتلتها. عندما أعطيتُكَ تلك الحيوانات الميتة، ظننت أنها كانت خلاصك. لقد كنتُ مخطئًا يا بني. الآن سوف أقدم لك الخلاص الحقيقي الذي منحتُه السيدةَ "هيلجا" التي كانت تعاني قبل أن تصل إلى القرية بوقتٍ قليل.

أخذ الرجل المسدس من يد المرأة العمياء، وسلمه بابتسامة إلى "أناطولي"، الذي بدوره أخذ المسدس وهو مرتبك.

- افعل ما عليك فعله يا "أناطولي"، توجد رصاصة واحدة.

أدار العجوز ظهره وذهب في اتجاه الباب.

قال "أناطولي" في ارتباك:

- يمكنني إطلاق النار عليك، أيها الوغد.

استدار العجوز ونظر إليه بنظرة غير مكترثة.

- أنا مُخْلَّدٌ يا بني. لا ترتكب مثل هذا الخطأ الفادح.

غادر العجوز المنحني المنزلَ وابتعد عدة خطوات، لا يزال هناك الكثير ليفعله. لقد وصل فعلًا إلى طريق الغابة نحو العاصمة عندما اخترقت رصاصة بعيدة صمت القرية.







خاتمة

عندما انتهيتُ من الترجمة وقررت نشر هذه القصص، ذهبت مرة أخرى إلى متجر "باراتوش دي ريبيرو" لأطلب رقم تليفون "آنا" حفيدة "إلفريدا بيمنستوفر". تردد "ماوريسيو" في إعطائي الرقم، لكنه وافق بعد أن أوضحت له أسبابي. اتصلت بـ"آنا" ذات صباح في مارس 2015، وقدمت نفسي ككاتب وأخبرتها أنني ترجمت مذكرات جدتها وأنني أرغب في نشرها. عاملتني "آنا" ببعض الجزع، وقالت إن بإمكاني فعل ما أريد بها.

على الرغم من إجابتها الجافة، أردت معرفة المزيد عن "إلفريدا"، وسألتها كيف ماتت جدتها، وتحولت نبرة "آنا" إلى نبرة منزعجة. دخلت "إلفريدا" المستشفى مدةَ الثلاثة عشر عامًا الماضية، دون حركة في سريرها، وحُقِنَتْ بجرعات كبيرة من المورفين لتحمل آلام السرطان الذي كان يلتهم أعضاءها ويحرقها في الداخل، وعانت الهلاوس القوية والكوابيس. لقد عانت كثيرًا حقًّا قبل وفاتها.

حاولت معرفة من أين أتت "إلفريدا"، لم ترد "آنا" البوحَ بالكثير، فقط قالت إنها عاشت في منطقة "الكيميريون" في أوروبا الشرقية، وقررت المجيء إلى البرازيل هربًا من الحرب الأهلية، وأطلقت على نفسها اسمًا جديدًا وهو "إلفريدا" وكوَّنت عائلتها هنا. عملت حتى سن الستين سكرتيرةً في مكتب محاماة، وأمضت لياليها في الكتابة حتى الصباح. لطالما حلمت أن تصير كاتبة.

قبل إنهاء المكالمة، أرسلت بريدي الإلكتروني إلى "آنا" وطلبت منها أن ترسل لي صورة حديثة كانت أم قديمة لـ"إلفريدا".



الصورة التي تلقيتها:

